لكي
أبحث
عن نفسي
رواية
مقدم رتيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

رواية

كي أبحث عن نفسي

رتيبة مقدم

رحلة لا نهاية لها، وعند انتهاء كل تخييم تُضرم النار بمكان آخر معلنة عن مكان التخييم التالي...

طريق عسير وعند كل منعطف بداية جديدة...

غوص في الأعماق المظلمة واكتشاف المستور...

ربما حياتنا مجرد فترة نوم تتأرجح ما بين كابوس مرعب وحلم جميل. وإن كنّا نستغرق في الأحلام فيجب الاستيقاظ منها، ولن يتحقق استيقاظنا أبدا إذا كان الحلم جميلا ووديعا؛ لذلك وجب وجود الكوابيس المرعبة التي تدفع بنا إلى الاستيقاظ بسبب شناعتها؛ لمعرفة حقيقتنا التي تكمن خلف كل ما نمر به. فلا تستنار البصيرة إلا بالحزن والألم، فعند الحزن واشتداد قبضة الألم على القلب يرى المرء حقيقة كل شيء، حقيقة نفسه وحال قلبه والطريق الذي يجمعه بروحه... يرى حقيقة الدنيا على حالها دون أحكام سلبية كانت، أو إيجابية.

بالحزن والألم يتلاشى الغمد الذي يغلف بصيرته، حينها فقط يدرك لماذا اختبر كل ما اختبره؟ ولماذا تجرع العلقم حتى سدت نفسه؟ حينها تتصل نفسه بالسماء وتقترب من الله، فيجعل الله من كل ذرة حزن في نفس عبده نورا يضيء به بصيرته حتى يتضح له هوان الدنيا بالرغم مما فيها. حينها يبدأ يدرك حقيقة الأشياء وأن حياته مجرد حلم يجب الإفاقة منه ومجرد وهم لا يتحقق إلا بتصديقه...

∞∞∞∞

الفصل الأول

«علاج الألم هو الألم»

الرومي

ملاك

السجن والوحدة يعملان على تنمية الخيال وتطوير الحواس لتصبح خارقة تنسجم مع الهلوسات المتراقصة داخل رأس مسكينة قد أنهكها التفكير. لأنني أسمع الجدران الأربع وهي تناقش سقف الغرفة عن حالي، وتسأل: عن متى ينتهي ما أنا عليه؟ لأنها قد ملت فعلا وربما ترغب بتغيير لون طلائها الذي بهت وهو يشاركني هواء الغرفة الذي تلوث بكآبتي. لكن سرعان ما تدخل النقاش نافذتي التي عهدتني شبحا يتلصص على الحياة من خلالها، أراقب شجرة الحي المسنة المفعمة بالحياة والوجدانية وهي تسقط جل أوراقها كل خريف، لكنها سرعان ما ترتدي ثوبها الجديد بحلول بوادر الربيع. أما أنا، أرغب بشدة في التشبه بها لكنني عالقة في فصل الخريف ولا تنفك أوراق روحي عن التساقط المستنزف لكياني، ولا يسعني فهم حكمة الشجرة المسنة في الاستسلام التام لمشيئة لعبة الحياة والسير مع التيار الكفيل بتعديل كل الأمور. نافذتي على دراية بما يحدث بيني وبين الشجرة، تخبرهم أنها تشهد على بصيص أمل قد يخرجني من هنا...

في حين تجاهلي لحديث الجمادات التي تحيطني شهدت الليل وقد بدأ يتنفس لحظاته الأولى بعد انسحاب آخر شعاع، وأم مستعجلة بالبيت المقابل تلقي تهويدة النوم على صغيرها، فيطرب لصوتها عصفوران

يتغزلان خلسة على شباك غرفتها، يحاكيان ما يعيشه العاشقان الجديدان خلف جدران المسكن المجاور الذي ظل مهجورا إلى أن جاء من ينفض غباره ويكسر وحشته.

لكن يبدو أن لا أحد من الجميع يمكنه سماع حديث الليل وهو يسامرني بعد أن طال سهري، يروي لي قصصا عن القلوب المنكسرة التي تماسكت قطعها جل النهار بشمع قد انصهر من الحرارة التي بثتها نيران الآلام المخبأة في الجوف المظلم لكل شخص. لكن بعد هطول الليل تختبئ هته القلوب المرتجفة خلف الأبواب الموصدة لغرفها؛ فتداعب ظلمة الليل الطويل جراحها القديمة لتحييها مجددا فتبتل وسادات، وتُفرغ قنينات وتنطفئ سجائر واحدة تلوى الأخرى، بينما تُلتهم أجساد إلى أن يأخذ الليل خصوصيته فيُغيَب الجميع إلى صباح يوم جديد قد يكرر سابقه مع أن الحياة تستمر ولا تتوقف البتة... لكنني لا أصدق ما يقصه لي الليل؛ لأن قطع قلبي لا ترمم في النهار، ولا أعيش ألمي ليلا فقط. كما أن الحياة قد توقفت فعلا عندي حتى إنني لجأت إلى مدينة خِلت أنها ستساعدني لأنني صدقت قولهم:

«قسوة برودة لندن تطال القلوب فتُطفئ من دفئها وتخمد حريقها كي يتمكن سكانها من المواظبة على الحياة وتهميش كل المشاعر الجياشة التي تعرقل مواصلة المسير...»

لقد مضى خمس سنوات... خمس سنوات وأنا أتوسل إلى العريقة لندن

من أجل سَن قاعدة العيش فيها علي. لكن كل ذلك كان دون أي جدوى، فنيران قلبي لا تزال مشتعلة تكاد أن تحوله إلى رماد. مرت بالفعل خمس سنوات لكنني لا زلت عالقة في أحداث ذلك اليوم، أعيشه مرارا وتكرارا طيلة أيام السنوات الخمس المنقضية، فأنا أستيقظ على نفس مشاعر الهلع والحيرة، أتفقد هاتفي مباشرة بعد فتح عينيّ المنتفختين من البكاء طيلة الليل، فتفلت منها الدموع مجددا عندما تقع على أحرف تلك الرسالة بهاتفي، الرسالة التي لا تتعدى كلمتين فقط. فباتت حياتي تماما كأحداث فيلم **Triangle** الذين أصابتهم لعنة البحر، فتكرر موتهم على متن السفينة التي أبت الغرق أو النجاة، أما أنا أصابتني لعنة حب يتكرر على يديه موتي كل يوم والذي يأبى أن يغادرني أو أغادره. فبحيرة مشاعري قد جفت ولم يتبقَّ منها سوى رواسب الغضب وأملاح الاشتياق والألم المرير...

آدم

من أكبر ألغاز القرن الواحد والعشرين والذي لا يدري به إلا قلة ممن يحبون الغموض والإبحار في المجهول لغز مخطوطة فوينيتش. التي لا علم لأحد بأصلها ولا قدرة لأحد على تفسير رموزها ورسوم النباتات والكائنات عليها، ولا منطق من خرائطها الفلكية التي لا تشبه المعروف لدينا على الأرض. حتى راح البعض من الباحثين فيها إلى حسم قصتها وتفسير غرابتها على أنها تعود إلى عالم موازٍ لا تشبه نباتاته ومخلوقاته ما هو موجود بعالمنا، ولا نجومه نجوم سمائنا لذا لا يوجد تطابق في الخرائط الفلكية التي بها.

حسننا لن يكترث الكثير بما يبدو أنه اقتباس من أفلام الخيال العلمي، ولا أكترث أنا بدوري بمدى صحة فرضياتهم أو بطلانها. لكن قصة فوينيتش تشدني إليها لأنني مثلها تماما، فحتى أنا لا أعرف أصولي، وحتى أنا ليس لي المقدرة على تفسير أو فهم ما أنا عليه. حتى خريطة حياتي لا تطابق خريطة حياة شخص سوي ينعم بحياة واضحة المعالم. فأنا لغز لنفسي ولم يهدأ لي بال حتى اخترت طريقا اعتقدت أنه سيفكك لي شيئا من رموزي. لكن وككل شيء في الحياة يجب دفع ضرائب قبالة أي شيء. فكانت ضريبتي قاسية قسمت ظهري وزادت من لهب نيران جحيمي، تطلب الطريـــق

الجديد لي دفع ضريبة ضحيت فيها بحبي. ملاكي، موطني، هجرتها فهجرتني البهجة من بعدها إلى أن سَلّمْتُني لسُنة ما يجب أن تكونه الأمور، حيث تختلف السعادة عن التي اعتدناها ويختلف منطلق فهم الحياة. تركتها وأنا أتمنى أن تكمل مسيرتها في الحياة وأن تفرح وتنال كل الهناء والسعادة، لكن ذلك الصوت بداخلي لم ينفك قط عن الدعاء خلسة من أجل أن تنتظرني، أن تنتظر موعدي المجهول للقائها، أن تنتظر خلاصي وتحرري...

أقسم بأنني لم أخن عهدنا... أقسم بأنني لم أتوقف عن حبها قط... أقسم بأنني لا زلت أستشعر همس روحها من حولي...

ملاكي أعلم بأن الحياة لم تنصفك حينما وضعتني بطريقك، لكنها بهذا قدمت لي أروع وأثمن هدية على الإطلاق. بك أنت مَنحتني ما يصبو إليه الجميع فالكل يتلهف من أجل أن يجد الحب أن يُحِب ويُحَب، الكل يبحث عن الحب من أجل الاستقرار والسكون والهناء.

فيك يا صغيرتي وجدت كل الحب، فيك شعرت بالانتماء فكنتِ كلي وموطني الذي لطالما بحثت عنه. لكن الأوطان قد تُهجر إذا سادت الحرب واشتد الدمار، وما كان بك شائبة من الدمار الذي من الممكن أن يطردني من رحابك، بل الدمار وكل الخراب كان بي أنا وما كنت لأرضى أن أفسد وطني. أنا آسف يا ملاكي فالحب لم يكن خلاصي حينها.

أم ملاك

أزقة ضيقة تختنق الأنفاس بين تفرعاتها التي تجعلك تعتقد لوهلة أنك بإحدى مواقع تصوير فيلم بعنوان الشقاء، جدران بالية يرهقها حمل سقوف المنازل المتداعية، كما يرهقها حمل أنين وأسرار من يحتمون بينها. فقط تدلّي الغسيل من شرفاتها يؤكد وجود من يحيا بها ويتنفس الأمل في لقاء غد أفضل.

أول ما يلاحظه الزائر لذاك المكان هو تلك الفوضى المتحايلة التي تتخفى بالمجهودات التي يبذلها السكان في جعل المكان بقعة متصالحة مع العيش، فعلى بضع خطوات تختلط بالحصى بقايا طلقات الرصاص على الأرض، كما يمكن شم رائحتها الحادة العالقة بالهواء، ويمكن معاينة آثارها في حنايا كل الشارع من جدران الأبنية وعلى البضائع والألبسة وغيرها، حتى يبدو المظهر لوحة لفنان قد أضجره الملل فأفسد ما تفننت فيه يداه حتى يجعلها خرابا يشبه الفوضى التي أحدثها به الملل. هته أشياء تبدو طبيعية هناك لأنها تتكرر كثيرا وهذا ما يجعل الناس ينسونها بسرعة ويعودون بالتوجه إلى أكبرهم لهم -تأمين لقمة العيش-

لكنك إن واصلت التجوال فستتمكن من سماع صدى لصوت يرتجف، ينط بين الجدران، لوهلة تحسبه شبحا، لكنه في الحقيقة صراخ مسجون

منذ عقود يحاول التحرر والتحليق في السماء عل العالم يترصده. لكنه للأسف صراخ أبكم لا تسمع له أي نغمات أو تراتيل، وفي محاولة منك تتبع أثر الصدى، ترفع رأسك نحو الأعلى لتصعق بتشابك خيوط الكهرباء التي تتنافس مع خيوط العناكب في تشكيل أعقد شبكة في حجب إطلالة السماء. شبكة دموية تحالفت مع المياه المنهمرة من جوف السماء في إلقاء القبض على الأرواح البريئة جنبا لجنب مع ما يفعله الرصاص والأمراض اللئيمة. حتى المياه التي من المفترض أن تكون مصدر للحياة وقّعت على اتفاقية جعلها أكثر بؤسا بملوحتها اللاذعة، فحتى الصابون لا يتفاعل ولا يذوب بها.

وعلى بضع خطوات يمكنك أن تلتقي بأطفال يحملون قارورات لتعبئة بعض من المياه الحلوة، يتخاطفون عليها بدل أن يتخاطفوا على الألعاب. أطفال في وجوههم براءة ممزوجة بنوع من المرح المزين ببعض من البؤس الذي يجتاح ملامحهم ويسيطر عليها كلما تقدم بهم العمر وزاد إدراكهم لحالتهم التي هم عالقون بها. أطفال أقصى أمانيهم الحصول على هوية فقط من أجل ارتياد المدرسة، وأكبر همهم غياب مساحات للعب، هَم يتقاسمونه مع تلك العجوز التي لم يبقَ من جمالها سوى زينتها الفضية التي تغطي جبينها لتخفي تجاعيدها العميقة، مع الحلَق المتدلي من أذنيها المتهرئتين. هي عجوز تحلم أيضا بمساحة أوسع تغرس فيها بعض الورود والأزهار تزين بها حزنها ووحدتها بعدما فقدت زوجها وأبناءها. تستأنس بإلقاء تحية صباح الخير عليها مع وجبة صباحية تتمثل في كأس شاي

يشتاق إلى رغيف الخبز الذي فارقه منذ مدة لندرة الطحين. تقبل أزهارها بقليل من قطرات المياه العذبة التي وهبها لها جارها موصيا إياها أن تقتصد فيها؛ لأنه تكبد عناء طويلا حتى تمكن من الظفر بقارورتين لعائلته وقارورة لها ليكرم بها صداقته مع أحد أبنائها الراحلين. تُحيي العجوز في داخل مؤنساتها الحياة فتحيى هي قبل أن توقظ الحياة في أزهارها وورودها.

أطفال عشت طفولتهم لكنها عجوز لم يكن لي نفس مصيرها؛ لأنني أُخرجت من تحت الأنقاض على يد فارس حارب من أجل أن ينتشلني من ذاك المخيم ويضعني تحت سقف بيته.

من يصدق الحياة التي عشتها كيف آلت وأين كنت و أين أنا؟ من فتاة يتيمة تلعب لعبة الغميضة والاختباء مع الموت في أزقة مخيم اللاجئين...

أنا على غرار أولئك الأطفال، وجدت هوية وحققت حلمي في تكوين عائلة، وأنا على غرار تلك العجوز البائسة لدي من يؤنسني...

زهرتي ووحيدتي ملاك هي كل دنياي، هي ثمرة حبي ونتيجة زواجي الذي لم أستقر في عقره مطولا. حملت بها بعد جدال مطول مع العقم جعلني أعتقد مجددا أنه لا سبيل لي يجمعني مع سعادة مكتملة، لكن شاءت الأقدار لتثبت لي أن هناك دوما أمل لا تنطفئ شعلته ولا يتلف فتيله. وضعت طفلتي خديجا في إنجلترا بعد انتقالي وزوجي للعيش بها تزامنا مع نيله فرصة عمل بإحدى الشركات هناك. هجرنا بلاد الأرز وتركنا خلفنا

عائلته التي لم ترحب بي ولم تقبلني فردا منها، تركنا خلفنا مخيم شاتيلا للاجئين وتركنا قلوبهم تتألم، يتوارث بؤسهم كل مولود هناك.

مضت السنوات الأولى بسرعة، سهل علي العيش في البلد الجديدة وشعرت بالألفة؛ لأنني كنت مع أغلى ما أملك؛ زوجي، هويتي ومنقذي، ومع ابنتي؛ وقود حياتي، لكن الأيام الجميلة لا تدوم إلى الأبد فسرعان ما اجتاحت عاصفة هوجاء حياتي وأتلفت عش الزوجية؛ لأجد نفسي في طرفة عين أرملة وأمًّا وحيدة في بلد أجنبية. فكلما أغمضت عينيّ تقابلني صورته وقد أصبح طيفا يشبه زوجي لا زوجي. ذابت كل عضلاته وبرزت كل عظامه، سقط كل شعره الأبيض والأسود، وغاصت عيونه في جمجمته، تضاءل صوته حتى اختفى... احتضنته في لحظاته الأخيرة حتى كاد أن يتغلغل بداخلي. رحل وأخذ معه جزءا من روحي، مات على يد عدو آخر لا رحمة به غير العدو المسلح بالرصاص والقسوة الذي طاردني شبحه وأنا طفلة بعد تخلصه من كل عائلتي فلم يبقَ لي غير لعنته والحقد اتجاهه، لكن العدو الذي وقع في شركه زوجي لن ينفع كرهي له ولا منطق من حقدي عليه. رحل حبيبي بعد أن احترق جسده وهو يدافع عن أنفاسه الأخيرة في معركة ضارية مع السرطان.

ترملتُ ويُتمت ابنتي بعمر الست سنوات، لكنني كنت لها بعد هذا الأب والأم وكل شيء. كافحت من أجلها ومن أجل أن لا تشعر بالنقص في أي شيء. بعد وفاة زوجي رحمة الله عليه نقبت عن عمل ليعيلني وابنتي، لكن

كل فرص التوظيف في عمل ثابت ومريح كانت منقرضة؛ لأن الأمر كان يتطلب شهادة تعليم وأنا وليدة مخيم بالكاد يوفر الأمن ولقمة العيش للاجئيه. وبهذا اشتغلت في التنظيف فحفظت ركن كل منزل لمانشستر، ونظفت كل الصحون التي أطعمت زبائنها، والتقيت بأكبر عدد من الناس في حرمة المطاعم فشهدت على حبهم بينما يطعم الزوج زوجته بيده، يرتحل الغرام بين أعينهم جيئة وذهابا. وشهدت على خصوماتهم بينما يغادر أحدهم الطاولة منزعجا ويضع الآخر يده على رأسه حسرة فيما قد يكون افتعله من خيانة أو إهمال أفسد ما بينهما. استرقت أذناي السمع لأغرب الأحاديث بينما كنت أخدم طاولاتهم وأوزع طلباتهم...

عندما كانت ملاك بسن الخامسة عشر، أخيرا تنفست الصعداء، وثبتت قدماي على أرض دائمة الانزلاق والخطورة طالما يمشي عليها المرء دون قوة. كنت قد تمكنت من افتتاح مطعم صغير يقدم الأكل التقليدي اللبناني والحمد لله كنت بقدر المسؤولية، تمكنت من رعاية ابنتي وتوفير كل شيء مس حاجتها، دفعت بها إلى السعي وراء تحقيق حلم طفولتها، فكانت أروع مذيعة تنشر البهجة والسرور عبر أمواج الراديو.

أحببت الحياة و تمكنت من الاستمرار فيها بعد كل الأشواك التي ملأت طريقي فقط لوجودها بحياتي. كيف لا وهي ملاك أنعمه الله علي، فبهجتها وضحكتها الدائمة ملأت ورممت كل تلك الجراح بحياتي. فلم أرَ الحزن يكتسح وجهها أبدا قبل ذلك اليوم المشؤوم الذي اختطف الابتسامة

والنور من وجهها. لقد فقدت ابنتي وهي أمام ناظري، رأيت روحها تذبل نصب عينيَّ، لكنني عجزت عن لم شتاتها وإرجاع بهجتها. فأنا لم أتردد قط في توفير أي شيء لها من أجل إسعادها، لكن الآن الأمر ليس بيدي وما لي بحيلة لإخراجها مما هي فيه. فأنا ليس بإمكاني الإجابة عن أسئلتها الموجهة له، وليس بإمكاني أن أحضره لها ليرضي فضولها. ليس بإمكاني إعادة سعادتها التي ربطتها به مذ أن أحبته وسلمت زمام حياتها له... أما أنا فاحترت في تصنيفه مع العدو الذي تخلص من وجود عائلتي والعدو الذي سرق مني زوجي؛ لأنه كان ملاكا لملاكي قبل أن يهجرها...

الفصل الثاني

« إنني مقيد إليك، لا بالحب وحده فالحب وحده لا يكفي، الحب يبدأ، الحب يأتي، ينقضي، ويأتي مرة أخرى، ولكن هذه الحاجة التي تقيدني بالكامل إليك هي ما يبقى.»

كافكا

ملاك

عند نظري إلى المرآة لم أعد أرى نفسي، ولم يعد بإمكاني التعرف إليها؛ لأن الدمار قد طال حتى ملامحي، فتحولت صورتي إلى شبح يرعبني قبل أن يرعب من يراني. لون بشرتي الباهت مع قطع من الليل تحت عينيّ، وعظام وجهي البارزة مع جسدي النحيل الذي يختبئ خلف قماش قميص قطني يحنو ويشفق عليه أكثر مما أشفق أنا على نفسي. منظري يوحي إلى اضمحلال جذور الحياة بداخلي وكأنني جثة محنطة هاربة من إحدى المقابر.

ربما هذا كله لأنني تمردت على قواعدي وخالفت المسير الذي اعتدت المشي عليه، فلطالما تشبثت بالاستقرار والسلام من أجل حياة هادئة وبسيطة؛ خشية الخوض في تجارب جديدة علي. كنت أصد أي شيء وأي شخص قد يغير سكون حياتي خوفا من كل جديد يهدد منطقة الأمن خاصتي وما اعتدته.

كل أحلامي التي اعترفت بها متجاهلة الجامح منها كانت تنحصر في أشياء بسيطة وسهلة، وبالفعل كان هذا هو مجرى حياتي إلى أن قابلته، فانقلبت كل موازيني وتغيرت نظرتي المحدودة عن الحياة، وتعرفي به أتاح لي فرصة إحياء أحلام جامحة، والتعرف إلى نفسي الدفينة التي كانت تطوق إلى

التحرر من القيود التي فرضتها عليها، فقط بسبب الخوف من السيرنحو المجهول الذي كنت أرهبه؛ فارتضيت حياة رتيبة يملأها فقط وجود أمي إلى جانبي، يتبع ظلها ودعاؤها كل خطواتي إلى أن قابلته فأصبح وجوده

يساند وجود أمي إلى جانبي، وبات هو الآخر سبب ابتسامتي الناعسة المدللة في كل صباح أرى فيه صورته المطبوعة في كياني قبل أن أفتح عينيّ وأرى ضوء النهار.

كنت مدللة أمي ثم أصبحت مدللته، فكان لي الأب الذي لم أحظَ به قبل أن يكون حبيبي. فبفضله تمكنت من إحياء طفولتي التي عشتها دون والدي.

كان كلي وكل حياتي حتى إنني اعتقدت بسذاجة وتفكيرطفولي أنني في غنى عن الهواء؛ لأنه أصبح الأوكسجين خاصتي، وبعد رحيله أصبحت أعاني صعوبة في التنفس دون وجود أية مشاكل عضوية في رئتيّ. فليس لأحد المقدرة على لومي على عدم مقدرتي على العيش دونه، لقد أحببته ولا زلت أحبه لأنه كان أجمل هدية، ورحيله لم يكن سببا كافيا لي حتى أتوقف عن حبي له. حتى داخلي يرفض الخضوع إلى إرادتي في نسيانه وكل محاولاتي قد باءت بالفشل في متابعة حياتي؛ فأنا لا أريد بعده غير الحياة التي عشتها معه. لكنني لا أفهم كيف مع كل الحب الذي أغدقته به سمحت له نفسه أن يتركني ببساطة شربة ماء؟ حتى إنني أكاد أشك في أنه قد أحبني يوما لولا معرفتي الجيدة بلغة العيون التي اعترفت لي بحبه قبل أن يفعل هو.

كيف سمحت له نفسه أن يهجرني؟ وأنا التي كنت أردد على مسمعيه في كل فرصة متاحة: «مجرد تفكيري بفقداني لك يرعبني، ويجعل أنفاسي تتثاقل وخفقان قلبي يتسارع». قلبي الذي بالكاد أشعر بنبضه الآن.

كيف له أن ينسى انهياري بقاعة السينما؟ وعدم تمكني من إتمام مشاهدة فيلمLake house رغم جودته وقصته المختلفة التي بدا الجميع مستمتعا بها ينتظر النهاية التي لا أعلم عنها شيئا إلى غاية اليوم؟ فقط لأنه بث بداخلي مشاعر الاختناق وجعلني أفكر فيما قد يحدث لي إن عشت قصة تحول بيني وبين حبيبي. ليلتها بصعوبة أرغمته على اقتناء علبة من الفشار وقنينة كولا اللذين كانا أهم طقوس ارتياد السينما بل أهم من الفيلم ذاته، لكن طقوسه الطبية بالنسبة لي كانت عائقا في إتمام المتعة؛ لأنه كان يمتنع عن كل أكل غير صحي ويمنعني عنه، ومع هذا كنت كطفلة صغيرة تترجى والدها من أجل قطعة حلوى بعد فرش أسنانها قبل الخلود إلى النوم. دخلنا قاعة السينما، لحق الجميع بالأماكن المحجوزة لهم وأعتقد أنه كان من حسن حظي يومها تواجد مكاننا بالصفوف الخلفية. توقفت كل الهمسات وخمدت كل الأنوار المضيئة للقاعة أو الصادرة من شاشات الهواتف بعدما أضيئت الشاشة العملاقة أو بالأحرى انعكاسها. فكان عائق الزمن المخيف الذي صنع فجوة رهيبة بين حبيبين يتوقان إلى بعضهما...

«كانت كيت في سنة 2006 بينما كان أليكس في سنة 2004 وكل مـا كان

بينهما هو تبادل الرسائل عبر التشوه الزمني ببيت البحيرة، الذي كانا يتواجدان به في نفس الوقت لكن في زمنين مختلفين، فكانت لعنتهما حب قد عاداه الزمن وما كان للماضي أن يواكب المستقبل. مربهما الوقت وزاد

غرامهما ببعضهما لكن يبقى خط الزمن الفاصل بينهما، شيء مستحيل...

شعرت بالغثيان والاختناق لضعف في نفسي من أحداث الفيلم المعقدة وفكرة هاجس الزمن المرعبة التي تحاكي كل العراقيل التي من الممكن أن تقف حائلا في لم شمل قلبين يخفقان لبعضهما.

لم أتمكن من متابعة الفيلم إلى آخره بينما بدا على جميع المتفرجين الاستمتاع ورغبة في فهم الأحداث مع انتظار المفاجأة التي يخبئها الفيلم الشيق. انسحبت من قاعة السينما وأنا أتعجب من ذوق آدم في اختيار الأفلام، حينها قد بدأ يخيفني بالفعل؛ لأنه يحمل نوعا من الأفكار التي أجد فيها عتمة وارتيابا عما يكمن خلفها. فكيف لفيلم معقد كهذا أن يكون المفضل لديه وأنا أعلم تماما أن اختيارات الإنسان تعكس داخله؟

خرجت وأنا أشعر بالانهيار؛ لأن فكرة الفيلم داعبت مخاوفي حينها وجعلتها تتسلل إلى السطح، كنت أرتعب فعلا من فكرة فقدان أحبتي وهذا هو سبب الحماية المشددة التي كانت تطوق طبيعة حياتي... أتراه خالني أمزح في تلك الليلة وجسدي يرتعش بين أحضانه بينما عيناي تذرفان الدموع ولساني يترجاه بأن لا يتركني كيفما آلت حياتنا وسط دهشته بما حل بي

فجأة؟ كذب علي حينها ووعدني بالتمسك بي مهما احتالت علينا الحياة بمصائبها... لكن عندما تتعرض السفينة إلى خطر الغرق يبدأ ركابها في التخلص من الأغراض الثانوية عليها. فهل كنت مجرد أحد أغراض سفينته وعندما شعر بالثقل كنت أول ما تخلص منه؟

بعد أن تعبت قدماي من حملي نصب النافذة ككل مرة ناداني فراشي ليريحهما، لكنني أعلم أنه يتمنى لو يريحني مما أنا عليه. لا أعلم كم من الوقت قد مر بينما غفوت وها أنا ذا أنتصب أمام المرآة لأتفقد الشبح الذي أصبحته، لكن أول انعكاس منها إلى عينيّ هو بريق تلك القلادة التي تتدلى من عنقي. إنها ورسالته الأخيرة التي لا تزال قابعة في هاتفي ذكراه الوحيدة التي أحتفظ بها بعد تخلصي من كل شيء يخصه حتى ما لا يجوز لي التخلص منه. إنها القلادة التي أخشى أن تفارق عنقي فلم يسبق لي أن نزعتها منذ أن لفتها يداه حوله، ولا أعتقد أنني سأتمكن من إزالتها يوما. إنها القلادة السحرية التي بشكل ما كانت سببا في لقائنا.

أم ملاك

لم أحظ بأم ولم تكن لي دراية عما يجب أن تكونه الأم غير الفطرة في العناية بطفلها، مصحوبة بصورة شكلتها بنفسي عما يجب أن تكونه. فكان في اعتقادي الدائم أنني تلك الأم المضحية القوية التي تمكنت من اجتياز كل شيء وكل تلك السنوات بمفردها، الأم التي تمكنت من تربية ابنتها ومنحتها كل ما احتاجته وما لم تكن بحاجته، وهذا ما يخولني أن أقول عن نفسي: «أنا أم مثالية».

لكن الآن أدرك بأنني مخطئة؛ لأنني كنت كمن يحاول إنقاذ سمكة من الغرق باعتقاده أن السمكة يجب أن تعيش في بيئته، غير مدرك أن ما يسد نفسه ويسبب له الغرق هو ما تحيى به هي.

كنت أتباهى بابنتي وبما هي عليه كونها الفتاة البارة، الخلوقة، المتعلمة والملتزمة بما علمتها إياه في بلد أجنبي يتنافى تماما مع ما نعيشه وما نتبعه. كنت مخطئة باعتبار نفسي أمًّا مثالية قد وفت حقوق ابنتها وأكثر. كنت مخطئة لأني غفلت عن أهم شيء. أنا لم أعلم ابنتي كيف لها أن تكون قوية ومستقلة، لا بل عزلتها عن كل التجارب والمواقف التي تبني استقلاليتها وتدعم ثقتها وقوتها، لقد منعتها من لمس المياه التي كان لا بد لها من أن تغوص بها يوما ما. كنت لصيقة بها من شدة خوفي عليها فهي لم تغب عن

ناظري قط. عودتها أن تعتمد علي وأن لا تقدم على أي شيء قبل أن تطلعني عليه، وبهذا قد قتلت صلتها بنفسها. لم أسمح لها بخوض المغامرات في الحياة، ولم أتح لها فرصة الابتعاد عني والاندماج مع العالم من حولها. لقد قتلت فيها حب المغامرة والسفروتكوين علاقات اجتماعية. جعلت نفسها خاوية ترهب من كل جديد وغريب عنها. لم أنبه ابنتي لتحب نفسها أكثرمن أي شيء وتختارها أولا تحت أي ظرف وفي أي مكان وزمان؛ كي لا تهزم في وجه أي شيء كان.

بسبب تعلقي وخوفي الشديد على ابنتي فيما سبق، الآن هي تعيش الجحيم؛ لأنها فقدت ذلك الشخص الذي أعتقها من القيود التي وضعتها لها. الشخص الذي أزاح جدران الخوف من حولها فسمح لها برؤية العالم بطريقة لم تعهدها من قبل، إنه الشخص الذي جعلها تخرج من عالم الكتب إلى عالم الواقع، إنه الشخص الذي مكنها من رؤية الكلمات خارج صفحات الكتب فأصبح كل شيء في حياتها ودليلها على خريطة العيش. إنه الشخص الذي أخذ بيدها نحو الشاطئ فابتلت قدماها فأيقنت أنه مكان عيشها الذي تنتمي له فغاصت معه، لكنه ترك يدها في الأعماق وهي لا تجيد السباحة بعد، فتاهت وعلقت في المياه التي أصبحت ضحلة بسبب تجديف يديها الذي لم يتوقف إلى غاية اليوم ولم تلقَ حتفها في الغرق بعد؛ لأنه بوسعها التنفس هناك.

أما أنا فما كان بيدي حيلة، فملاكي ولدت خديجا ومهما تقدم بها العمر

لا تغادر ذهني أول صورة لها عندما وضعتها الممرضة بين يديّ بابتسامة محتشمة تهنئني وبعين تشفق علي؛ لأنني كنت من المحتمل أن أفقد رضيعي الذي خرج إلى الحياة قبل أوانه ولم يكتمل نموه بعد. كانت بطول يدي تقريبا، لا شعر يغطي رأسها الصغير ولا رموش تحدد عيونها المغلقة الجاحظة والمنتفخة، لون جلدها أحمر وأصابع يديها رقيقة كأنها عود ثقاب وشفافة تظهر قطع العظم المكونة لها والأوعية الدموية التي تغذيها. استأذنتني الممرضة لأخذها ووضعها بالحاضنة حتى يكتمل نموها تحت رعاية طبية خاصة لها ولأمثالها من الرضع الذين جاءوا إلى الحياة في عجلة من أمرهم، ولا علم لأحد لماذا اختاروا القفز إلى الوجود قبل الموعد المحدد. ولهذا لطالما اعتبرت ملاكي خديجا في الحياة ويجب أن تحظى دوما برعاية خاصة، وفي تفكيري دوما اعتبرت أنها جاءت إلى العالم غير مهيأة، وأنها لن تكون مهيأة لمواجهته على الإطلاق.

آدم

ترى ما الذي تفعلينه الآن؟ أنا أسال عن هذا كل من يمكنه أن يحمل لي شيئا من أخبارك، من طيور مهاجرة ورياح شمالية. لكن لا أحد منها يجيب، ربما عقابا لي لأنني ابتعدت وتركتك تتخبطين في موج من الحيرة والألم.

فهل تتابعين بث السعادة عبر الأثير؟ أم أنك اخترت إحدى الأماكن السحرية التي يطابق وصفها ما كنتِ تقرئين عنه في رواياتك المحببة، حتى تطيب نفسك من لمس كائن مثلي لا يصدر منه سوى العلل. أم أنك ما تزالين تخيطين الجرح العميق الذي خلفته في قلبك دون أن أقصد أذيتك؟

أما أنا هنا في ملجئي هذا، أحاول أن أرسم عنك صورة سعيدة؛ قد تخطيتِ محنتك التي كان لي نصيب في إضرام لهبها. أتخيلك جميلة، سعيدة، لا تتذمرين من شيء كما اعتدت أن أراكِ كنسمة هواء عليل يطيب الأنفس المختنقة. ولكم أرغب في إطلاعك عن مدى وفائي المخلص لولائك الذي يصد تودد كل امرأة لي. فمنهن من تسعى فقط إلى الظفر بي لليلة ثم تختفي في بكرة الصباح فلا أتذكرها ولا تتذكرني، وهي تبحث في كل ليلة عن ملاذ آخر قد تسعد به لكنها لا تجده أبدا؛ لأنها في كل مرة تقرع بابا يشبه باب

السعادة لكنه ليس هو. أما الأخرى فتدفع بها رغبتها في قصة حب محبوكة بخيوط التضحية من أجل إنقاذ حبيبها من شباك حب قديم إلى إيقاظ قلبي النائم الحالم بك، فتتودد إلي بأطيب الكلام وأتفه الأسباب وصولا لي، وأقذر الحيل فقط من أجل لفت انتباهي. أما النوع الثالث هي تلك التي تراقب من بعيد، تستطلع عن أحوالي خلسة، وتستمتع بمشاهد من الفانتازيا الحميمية بيننا من نسج خيالها، تترقب موعد ولادة فرصة قد تجمعنا سوية. لكن أمام كلٍ منهن أعلن انسحابي وأرفض التورط في قضاياهن بطريقة دبلوماسية حتى لا أجرح كبرياءهن دون أن أشرح موقفي من فعلتي الغريبة في نظرهن، ولكن حدس الأنوثة اليقظ لديهن يطلعهن عن وجودك الخفي عنهن المرافق لي. ففي كل مرة تكرر إحداهن السؤال الذي تبهجني الإجابة عنه وأنا أحاول أن أنصف الحديث عنك...

- تحبها كثيرا، أليس كذلك؟

فيكون جوابي تنهيدة طويلة يصعب قول بعدها شيئا ليس للكلام قدرة في حمله.

- أهي مختلفة إلى الحد الذي يجعلك أعمى عن رؤية غيرها؟

فيكون جوابي عبارة عن ابتسامة مرتخية وعيون تتطلع بالسماء لتبوح لها أنها لا تجد من تشبهها.

- هل لي أن ألقي نظرة ولو خاطفة قد تزيل حيرتي من خلال وصفك عن

امرأة تمكنت من جعل رجل وفيًّا لها حتى تُتداول قصتها بين جمع النساء ليتصالحن مع خيانة كل رجل سبق أن جعلهن يعتقدن أن كل الرجال سواسية لا نصيب للوفاء معهم؟

فيكون جوابي كنص مقدس أرتله بحذر حتى لا أفسد منه شيئا:

«لولا الحياة الرثة التي عشتها لاعتقدت أنني مبارك حتى أحظى بها؛ لأنها جميلة كياقوتة نادرة وقعت بيد لص تخلص منها؛ لأنه لا يمكن أن يتاجر بها في سوق سوداء لا تليق بها. جميلة جدا لكن ريثما تتعود العيون جمالها تشرق روحها معلنة عن الجمال الأبدي لها...

لن يعجب قولي هذا: نيوتن وكل فيزيائي يقدس العلوم، لكنني يجب أن أقر أن جاذبيتها لي هي من تشدني إلى الأرض لا الأرض نفسها. جاذبية تمردت على قوانين الفيزياء فقوتها لم تضؤل ببعدي عنها. فلا تزال قبلة قلبي وشمس حياتي، ينير ضوءها جانبي المظلم المتعفن من الأفكار السوداوية عن الحياة... نقاء روحها الذي تسلل من أعماقها لينسج بخيوطه البراءة على ملامح وجهها، براءة تجعل التائه يتخلى عن كل العالم ويرتمي بين طياتها للاحتماء من كل شيء ينغص صفو الحياة... روحها المرحة تتجلى في ابتسامتها التي تشبه أشعة الشمس الهاربة من جوف غيوم سماء يوم شتوي... طيبة روحها تفوح من عطر كلماتها، فهي تبدو أجمل من قطرات الندى وأحلى من أزهار التوليب وأكثر إبهارا من السماء المرصعة بالنجوم...

كانت تعيش بين صفحات الكتب فأصبحت إحدى أميرات القصص التي تحكي عنها الروايات في أزمنة غابرة، لكنني لم أكن أميرا يناسب قصتها... هادئة لكنها في نفس الوقت تملأ أي مكان تحط فيه بصخب بهجتها، تتكون من مزيج يجعلها منفردة ومتميزة والأفضل على الإطلاق».

أثناء حديثي لهن لا أعلم إن كن يحاولن تخيلك قدر الإمكان كشخص لم يسبق لهن لقاء مثله لكماله، أو أنهن قد وجدنك عادية جدا فيرحن إلى أحلام اليقظة يتخيلن أنفسهن مع مهووس مثلي له عيون تتطلع إليهن فتراهن كما تراك عينيّ.

أم ملاك

أعتقد أن لكل يوم كيانا يتميز به، ولا أعلم لماذا يرتبط يوم الثلاثاء بكل ما هو مشؤوم، ولا علم لي إن كان يحدث هذا بثلاثائي فقط أم أن الجميع قد عاش بؤسه يوم الثلاثاء؛ لأنني اختبرت أقسى الأحداث بهذا اليوم لذلك لا أستلطفه أبدا. فهو اليوم الذي قتلت فيه مربيتي بمخيم اللاجئين، وارتوت الأرض من دمها المتسرب من أحشائها إثر رصاصة اخترقت جلد معدتها لكنها اخترقت قلبي بعد فقدان عائلتي الثانية، وهو اليوم الذي اغتصبت فيه روحي، وهو اليوم الذي صلبت فيه الإنسانية أمام عينيّ بعد الكارثة التي حلت بالمخيم الذي عج بأطراف بشرية للكبار والصغار بعد القذائف التي كادت أن تمحي كل موجود حينها، وهو اليوم الذي كان فيه عزائي على زوجي، وهو اليوم الذي رأيت فيه بداية موت ابنتي وهي لا تزال حية ترزق...

في صبيحة يوم ذاك الثلاثاء بينما كنت أسبح في عالم الأحلام وأنا نائمة أحتضن وسادتي. استيقظت على قرع وحشي بباب منزلي، مما جعلني أجفل وأقفز من سريري متجهة نحوه متناسية خف قدميّ اللّتين لا تطيقان لمس الأرضية دونه. وسرعان ما بدأت مخيلتي تنسج الفرضيات عمن يكون خلف بابي، وعما يريده مني... عندما أصبحت أخيرا أمامه على بعد خطوات دون وعي تام عن كيفية وصولي له، ترددت في فتحه

واكتشاف القصة خلف القرع العنيف الذي لم يتوقف مذ أن حطت عليه يدا الطارق. بصعوبة تمكنت من فرز صوت ابنتي من صوت أنفاسي ودقات قلبي المتسارعة، يناديني من خلف الباب الموصد: «أمي...»، صوت متقطع يبدو كأنه صادر من مكان بعيد جدا، يملأه الألم والخوف.

حينها شلت قدماي وشعرت كأن جاذبية الأرض قد تضاعفت؛ لأنني بالكاد حملت قدميّ وبالكاد وصلت إلى الباب بعد قطع الخطوات المتبقية له... بعد فتحه تراءى لي وجه صغيرتي الشاحب المرتعب بعينين منتفختين تنهمر منهما شلالات من الدموع التي تنتهي عند شفتيها المرتجفتين. صمت آذاني عن كل الأصوات غير صوت طقطقة أسنانها وأنفاسها العنيفة... وقبل أن تنبس ببنت شفة تذكرت أنه صباح الثلاثاء فأيقنت مباشرة بأنه ثلاثاء آخر مظلم. أحطت ابنتي بين ذراعيّ وأخذت أصلي إلى ربي بينما يرتعش جسد طفلتي بين أحضاني. بعد عنائها في تشكيل كلمات مفهومة أخيرا استرسلت في الكلام وكل ما قالته:

«لقد غادرني من اعتبرته عالمي، فأين سأعيش الآن يا أمي؟»

لكن ما كان للأشخاص أن يكونوا أوطانا ففي النهاية الجميع يرحل، ويستمر بعده الترحال في نصب خيمة للعيش بأي مكان قد يسمح بغرس أعمدتها ونصبها. أما خيمتنا الآن تنتصب بمدينة لندن بعد انتقالنا من

مدينة مانشستر بطلب من ابنتي ملاك بعد أشهر من تلك الحادثة التي غيرتها كليا، وجعلتها تتخلى عن المدينة التي تعشقها، والتي كانت ترفض مغادرتها لأي سبب كان.

فقط مؤخرا بدأ يساورني الفهم عن الدافع وراء اختيار ملاك لمدينة الضباب عن غيرها من المدن التي كان بإمكانها أن تفر إليها حتى يخف عليها شغب شبح الذكريات الذي لم يستسلم وسافر معها حتى يجعلها تتجرع أكبر قدر من الألم. اختارتها لأنها باتت تشبهها تماما، لندن جميلة جدا لكنها تتزين بتلك الكآبة، الكآبة نفسها التي اقتنتها ابنتي بدل الكحل وحمرة الشفاه لتزين بها وجهها. لندن تتغنى ببرودة طقسها الذي لوهلة يعبر عن استحالة إمكانية العيش بها، لكنها لندن المدينة الحية وقبلة الكثيرين، هي نفسها البرودة التي طالت أوصال ابنتي فجعلتها تبدو كائنا يستحيل أن تسري فيه الحياة، لكنها ملاك التي لا تزال تتنفس الحياة بعد كل ما أصابها.

وبينما الضباب يملأ لندن فيحجب كل تفاصيل جمالها، فالصمت يملأ شفاه ملاك فيحجب تفاصيل جمال كلماتها المعتادة وابتسامتها الساحرة. لكن الضباب في لندن ينقشع كي يفسح لها للتباهي والتعالي بجمالها، أما صمت ابنتي يأبى الإفساح عن صوت الحياة فيها...

آدم

عندما نحمل معنا أشياء لزمن طويل تكتسب حياة بنكهتنا فتحمل خصالنا ورائحتنا، كما أنني أؤمن بأنها غالبا ما تتأثر بمزاجنا فلا تصبح ضمن تصنيف الجمادات وتتحول إلى جزء معرف لكياننا.

لم يصور إلي يوما أنه باستطاعتي الاستغناء عنها. فأنا لم أعهد عنقي بدونها قط، حتى إنني بفكر طفولي بريء وساذج كنت أعتقد أنني ولدت بها وكنت أرفض فكرة انتزاعها. لا أعلم من وضعها لي أمي أو أبي، أو أحد يعرف جذوري التي أتوق إلى الوصال بها فتنطفئ نيران الغضب والتوهان بداخلي. ففي اعتباري كانت دوما القلادة السحرية التي بين حلقاتها تتأرجح حقيقتي التي بحثت ولا زلت أبحث عنها. إنها قلادتي التي بدت أجمل وهي تتدلى من عنق ملاكي، إنها القلادة التي كانت أغلى ما يمكنني أن أهديه لها، وهي نفسها القلادة التي كانت سببا خفيا مهد الطريق من أجل لقائنا... بينما التفت يداي حول عنقها العاجية التي التفتت إلي بحنو وعينين بهما لمعة طفل مبتهج عند تلقيه هدية ميلاده، ألبستها إياها فابتسم لها قلبي قبل شفاهي، وائتمنت لها نفسي عندما وعدتني بأنها لن تزيلها أبدا، وأن تعتبرها جزءا منها كما اعتبرتها أنا. فكان وعدها يستهدفني أنا قبل قلادتي.

ترى هل تخلصت منها حتى تتخلصي من ذكراي؟ صدقا، لن ألومك ولن يلومك أحد فلا أجد عندك غفرانا بعد فعلتي الشنيعة. لكنني أرجوه بقلب منكسر حتى تخف علي أعبائي التي أصبحت لا تطاق. واعلمي يا ملاكي بينما تحاولين نسياني حتى تتمكنين من العيش بسلام، أنا أقتات على ذكراكِ حتى أعيش بسلام. وإنه ليس خطؤك أنني أفسد كل شيء، وإنه ليس مقدرا للملائكة أن تعيش تحت سقف الظلام. ولكن إن تبادر إلى ذهنك السؤال عن أحوالي، حتى وإن كنتِ تحترقين ألما وتثورين غضبا، تدّعين بأنك تكرهينني وتنعتيني بشتى أصناف الكلمات اللطيفة التي تعتقدين بأنها شتيمة. لكنني متيقن بأن قلبك يسأل عن أحوالي، فاعلمي أنني بخير!

نعم أنا بخير، عدا أنني لا أنام بشكل منتظم، والانفعال السريع مع الخوف الدائم من أن شيئا سيحدث في أي لحظة يجعلني أغرق في نوبات من الهلع متكررة بشكل رهيب. فيتصلب كل جسدي ويختفي صوتي مع انقطاع أنفاسي ليدوم بي الحال هكذا لما يقارب العشرين دقيقة، تنتهي باعتدال خفقات قلبي العنيفة وتعرق يبلل كل جلدي الذي تسري به رعشة من الكهرباء الساكنة لينتهي الأمر تماما حينما أسترجع أنفاسي، وتتضح لي الرؤية من جديد بعدما كان كل شيء ضبابيا.

أنا بخير غير أنني أدخن بشراهة، أراقب سيجارة تفنى بعد الأخرى حتى باتت رئتاي موقدا دائم الاشتعال متناسيا مبادئ الطب؛ لأنني لا أجد لها نفعا معي. فما فائدة جسد متعافٍ وبه نفس متعفنة. وبينما تتساءلين عن

أحوالي، أنا أتساءل عما كانت ستؤول إليه الأمور لو أخبرتك بكل شيء. هل كنا سنتجادل كأي عشيقين؟ لأنني ما عدت أهتم بك كالسابق وستلومينني على إهمالي، ربما تصرخين في وجهي وتهددينني بالرحيل دون رجعة! تستفزين رجولتي بينما تنكدين كما تفعل أي امرأة في موقفك، لكنك ما كنتِ لتفعلي هذا حتى إنك لم تحاولي أن تنبشي في خباياي، ربما لعلمك مسبقا أنه لا جدال مع من هو متجادل مع كل قطعه.

الفصل الثالث

«لقد رأيت الثقب في سفينتك منذ اليوم الأول للرحلة ولكنني قررت الإبحار معك ظنًّا مني بأن الحب يصنع المعجزات»

دوستوفيسكي

ملاك

يدعي الكثيرون بعد الفراق أن حزنهم بسبب الذكريات التي خلفت نكهة لا يمكن أن تغطي على وجودها أي نكهة جديدة مهما كانت حدتها وأثرها، لكن حزني هو فقدانك أنت، وهو أيضا الذكريات التي جمعتنا والتي ستظل راسخة في كياني حتى نهايتي، كما أنه بشكل غريب حزن على المستقبل الذي لن أعيشه معك. فأجد أني أشعر بالأسى؛ لأننا لن نتمكن من تجميع ذكريات جديدة من شأنها أن تزيد نسيج الحب بيننا أكثر تماسكا. فأنت لن تشاركني حلمي في الترحال حول العالم. حلمي الذي أجلته طويلا؛ لأنني افتقرت إلى حافز يزج بي خارج الحياة الرتيبة التي اعتنقتها والتي كانت تعجب والدتي؛ لأنها تبقيني قريبة منها في مأمن من أي شيء قد يصيبني ولا تبصره عينا أمومتها المفرطة كوني في نطاق بعيدا عن حمايتها.

لذا أنت لن تراني أرقص على أنغام شرقية بجسد يتمايل بانسياب مع النسيم الصحراوي وأنا أحدق إليك بعيون ملؤها الحب والشغف ناحيتك. بينما تقنع نفسك بأنني لست سرابا يطارد وحدتك في صحراء عَلِقْتَ بين كثبانها لسبب تجهله، وإنما أنا حبيبتك وهي صحراء لست بتائه فيها بل سائح يبحث عن وجه للحياة في كل ركن من العالم قد تصله

قدماه، فتتحسس يداك ملمس الرمال في حين تغوص قدماي بخلاخيلها الفضية في رمال صحراء الشرق الأوسط.

ولن ترتب أناملك خصلات الشعر المتناثرة على وجهي بفعل يد نسيم عليل يداعب خلوتنا على سطح إحدى مباني نيويورك سيتي، بعد هربنا من إحدى حفلاتها الصاخبة مخلفين زمرة من الأصدقاء الجامحين قد تعرفنا عليهم صبيحة اليوم فقط، فتكرموا علينا بدعوة لحفلتهم التي تناسب جموحنا لكنها تتنافى مع عفتنا.

أنت لن تتحمل تفاهتي وثرثرتي التي تقطع تردد أنغام أغان خالدة من تسعينيات القرن الماضي، حتى تغفو بين أحضاني ونحن على متن القطار نجوب المدن الأوروبية، نصطاد كل البقع التي لا تزال تتنفس عبق العصر الفيكتوري لنجد فيها ألفة عجيبة، حتى نصدق بأننا قد عشنا هناك فعلا، وكنا جزءا منها ونحن نرتدي أزياءها المميزة من فساتين مطرزة بخيوط ذهبية أو فضية بخصر مشدود لتحسين قوام النساء الحسناوات، وحلل كلاسيكية تزيد من رزانة الرجال يغلب عليها سترات ذات ظهر متدلٍ لا يرتديها الآن سوى قائد الأوركسترا، مصحوبة بقبعة مرتفعة لا يعتمدها اليوم سوى الساحر في عرض ألعاب الخفة يخرج منها أرانبه أو طيوره. نجوب أركان كل متحف أوروبي مندهشين أمام قطعه الفنية التي تخبرنا بأسرارها، وتؤكد لنا خيالاتنا بما تنقله لنا من عصرها.

أفتخر بك لأنك أروع حبيب قد تحظى به امرأة؛ كونك لا تهزأ ولا تخجل بالطفل الكبير الذي فقد صوابه بعد اصطحابك له إلى أرض الأحلام ديزني لاند، فتجعلني أعيش بعض الزمن مع شخصيات لأفلام الكرتون التي شاركتني طفولتي، والأميرات من القصص اللائي اعتبرت نفسي واحدة منهن، لينتهي بنا الدرب مع آخر الليل أمام إيفل الذي شهد على أعاجيب من قصص الحب، فنحظى نحن بدورنا بقبلة ذات نكهة فرنسية نتذكرها قبل كل قبلنا الفائتة والقادمة.

لن تشهد دهشتي بينما نحن نتجول بأروقة الأحياء الصينية بأبنيتها المتداخلة والمتراصة بشيء من الفوضى المرتبة. ولن تتذوق معي الأطعمة المختلفة لكل بقعة قد نزورها، فتقفز فزعا تبحث عن ماء لأجلي لكنك لا تراه بمقربة منك من شدة خوفك علي، بعد أن التهمت أول قضمة من طبق الكاري الحار الذي سد أنفاسي بعد أن التهب فاهي وحلقي، فينسى كلينا المرح والسعادة التي غمرتنا من الصباح بعد التلون بألوان عيد ديوالي الذي قصدنا الهند من أجله.

ولن تعيش معي شيئا من الحضارة الفرعونية بينما نتجول بأروقة داخل أهراماتها ومعابدها ممسكين بأيادي بعضنا، نستشعر التعاويذ التي ألقاها السابقون حتى يبقوا على وجودهم الذي نستشعره بقشعريرة باردة تسري على أجسادنا وسط حر الصحراء. فلا يبقى لنا سوى تخيل الحياة التي عاشوها بمساعدة من النقوش المذهلة على جدران قصورها

ومعابدها التي تخطف النوم من عيوننا بعد انتهاء يومنا معها وارتمائنا بين أحضان بعضنا ونحن نفكر في أعاجيب ما رأيناه من أعجوبة حقيقية على الجدران. فينشأ بيننا حديث عن الرموز وبما فسرها علماء الآثار حتى ينتهي بنا الحديث عن إزيس وأوزاريس، والحب الذي كان بين أخناتون ونيفرتيتي. فأمازحك بشيء من الدلع على أن تعدني وعده لها بقوله:

«أقسمت بك يا إلهي أن تجعلها نورا في قلبي لا ينطفئ، وتجعلني عودا في ظهرها لا يتكسر. فهي مني وأنا منها وكلانا سروجود الآخر.»

لكن كل هذا لن يحدث لأنني نور في قلبك قد انطفأ، وأنت عود لم يكن صلبا كفاية فانكسر وكسر معه ظهري.

كما أنني أشعر بالأسى؛ لأننا لن نتمكن من إحياء أمسيات شهر نوفمبر في إعادة مشاهدة كل أجزاء هاري بوتر مع أطفالنا، حتى يتجدد ويدوم السحر في حياتنا. أشعر بالأسى على الأيام التي كان من الممكن أن نعيشها سوية بينما يحفر الزمن بخطاه الثقيلة على وجهينا، ويمحو بفرشاته لون شعري الكستنائي ولون شعرك الأشقر، ليغزو البياض رأسينا. أشعر بالأسى على الأيام الطويلة المملة التي لن نقضيها سوية بعد التقاعد بينما نتسكع أمام التلفاز. نتجادل بسبب الاختلاف على عنوان البرنامج الأسبوعي؛ لأن كلينا لم يتمكن من قراءته بشكل صحيح بعد تعب نظرنا جراء التقدم في السن. ولن نتمكن من سرد قصص على أحفاد يتسللون هربا من منازلهم حتى

ينتهوا إلى دفء منزل عجوزين سقطت جل أسنانهما، لكن الحب لا يزال متمسكا بقلبيهما الفتيين بحب بعضهما رغم سنهما...

بين الجدران الأربع لغرفتي التي ألازمها كزنزانة لا يسمح لي أن أبرحها، بقميصي الأسود الذي يفوق حجمي أضعافا، فلا تظهر من أكمامه يداي إلا شيء من أناملي التي تدون: «لماذا؟» على زجاج الشباك الذي ملأه البخار المتكاثف من أنفاسي.

هكذا تمضي أيامي، واقفة أمام الشباك، أو متكورة في ملاءتي الصوفية على سريري. أغوص في أعماق نفسي أحادثها وتحادثني، وعند جدالنا بسبب رغبتها في التحرر الذي لا أقدر عليه حاليا أهرب منها إلى التفكير. فأفكر في كل ما حدث، وما كان من الممكن أن يحدث بيننا لولا قرارك في الابتعاد الذي لا أعلم عنه شيئا. لكن كل ما أعلمه الآن هو أنك بعيد، بعيد جدا لأنني ما عدت ألتقط إشارات لك بالجوار. لكنني لا أعلم إن كان ما يفصل بيننا هو المحيط، بلد، بلدان، قارة، أو قارات. لكنه بكل تأكيد ليس الحياة والموت ما يفصل بيننا؛ لأن همس روحك لا يزال يزورني ليطمئنني بأن الهواء لا زال يلامس قاع رئتيك بينما يغزو جوفي ألم مرير، أتذكر بعده كل شخص استوقفني في محطة القطار أو مكان انتظار الحافلة؛ لأنني لسبب أجهله كنت قطبا جاذبا لكل متألم يمر بجنبي يتحدث عما به، ويشكو ألمه جراء خذلان أحدهم له. يتحدث، ويتحدث دون أن أقاطعه، ثم ينتبه لغربتي عنه بعد أن ساد وجهه شيء من الارتياب عما إذا كان منوما

مغناطيسيا. يتأسف بملامح ذنب وندم عن سرقة كلماته من وقتي. فيكون جوابي: لا عليك إن كان هذا يساعد، يمكنك التخفيف من ألمك بكلمات ثقيلة قد أرهقتك، ولا تقلق أبدا حيال الأمر، ففي النهاية نحن غرباء ولا أعتقد أن المكان والزمان سيجمع كلًّا منا ثانية.

الآن أنا لا أقصد أيًّا من هته الأماكن ليس لأنني مللت من قصصهم وإنما مخافة أن يهزمني الألم، وتكون أنت الوجع الذي ينخر داخلي فيدفع بي إلى أن أقصه على غريب، لكن فعل كهذا يعوزني لأنك لا تزال عزيزي الذي يتربع على عرش حياتي وليس من اللائق أن يهان من هو بتاج. فبالرغم من كل ما حدث، ورغم تعاقب السنوات ما زلت أطمع في عودتك حتى وإن كنت أقمع هته الأمنية، أخفيها عن والدتي حتى لا تراني معتوهة يلد خيالها قصصا تصدقها، فتعيش في ركن منزوٍ من الحياة تنتظر حدوث شيء يقلب كل الموازين ويغير ملامح ما وقع بي. لكن هذا ما يحدث فعلا، فأنا نتاج القصص والروايات التي دائما تحمل نهاية سعيدة في أغلب الأحيان. فولعي بالكتب والروايات جعل مني فتاة حالمة تعيش في الخيال أكثر من عيشها في الواقع، وكل أفكاري عن الحب استوحيتها مما تقصه الروايات، وأعتقد أنها كانت السبب في تأخري عن الارتباط؛ لأنني رسمت لنفسي قصة حب أسطورية ليس من السهل أن تتجسد في الواقع الذي رفضت أن أعيش فيه وهو يخلو من الحب الذي رأيته بين كلمات تلك الروايات. الحب الذي شعرت به يدفئني والبطانية التي تحيطني أثناء ليالي الشتاء

التي قضيتها في تقليب صفحاتها. الحب الذي تخيلت مرارة الألم الذي يخلفه إذا غاب من كان سببا في إشعال فتيله، كالمرارة التي يخلفها طعم القهوة التي أرتشفها دون سكر في كل جلسة لي مع كتاب...

لكنني كنت عقلانية إلى الحد الذي جعلني أبحث عن الحب خارج كلمات الروايات في كتب أخرى، اعتقدت أنها ستساعدني على فهم ما ترغب روحي في عيشه مع روح تشبهها.

وبحكم عملي مذيعة جربت تنشيط العديد من الحصص في مختلف المواضيع. وآخر حصة قبل استقالتي من العمل ومغادرة مدينة مانشستر كانت حول الثقافة والأدب، ولأنها لاقت نجاحا وترحيبا من المستمعين استمرت إذاعة مانشستر في بثها لسنوات. وأجمل فقرة والتي أعتقد أنها كانت السبب في نجاح موضوع الحصة والتي كانت المفضلة لدي بدوري، هي فقرة: «minutes for book» التي كان علي أن ألقي فيها مراجعة لكتاب ما.

اخترت الكثير من الكتب المتنوعة التي اعتقدت أنها تحمل في طياتها ما يفيد المستمع، والتي من الممكن أن تكون له منارة تدله على شيء بحث عنه مطولا. تعيّن عليّ قراءتها أولا، ثم اختيار أسلوب يليق بإلقاء مراجعة كل كتاب كان نتاج سنوات من البحث والعمل لكاتبه، فمن غير اللائق تخصيص مجرد دقائق له، لكن الهدف الرئيسي كان تدعيم ثقافة القراءة واطلاع المستمع على كتب لم يكن له علم بوجودها.

أتذكر أول كتاب اخترته كان يتحدث عن الحب، والذي جعلني أتعرف إلى الحب من زاوية مختلفة وأكثر عقلانية، إنه كتاب: «art of loving » «فن الحب» لعالم النفس إيريك فروم.

«... أكثر ما أعجبني في الكتاب، هو تصريح الكاتب في آخر فصل من كتابه: فإن كان القارئ قد وصل إلى هذا الفصل وهو يتوقع وصفة تعلمه الحب، فإنه سيصاب بالخيبة؛ لأن الحب تجربة شخصية...»

«الكاتب فروم يناقش ويحلل الحب بشكل فلسفي، ويرى بأنه جواب لمشكلة الوجود الإنساني التي تكمن في الانفصال الذي يشعر به الإنسان والباعث للقلق. فحينما ولد لم يكن منفصلا بل خلق متحدا مع الطبيعة ومع أمه سواء حين كان في رحمها، أو حتى بعد ولادته باتصاله الشديد بها وشعوره بالأمان واعتماده الكلي عليها. لكنه كلما استقال بنفسه، أصبح واعيا بها وبانفصاليته، فاشتدت الحاجة لطرق أخرى من أجل التخلص من هذا الانفصال. فهناك من يهرب منه باللجوء إلى الخمر والمسكرات والحفلات الجماعية لكنها لا تغدو أن تكون مؤقتة تعود بعدها حالة الانفصال بشكل قد يكون أشد، وكذلك الوحدة في العمل الإنتاجي ليست اتحادا حقيقيا؛ إنما هو اتحاد مع أشخاص لم نخترهم، محكوم بطرق ليست طرقنا، فهي حلول جزئية والحل الكامل حسب رأي فروم يكمن في تحقيق الوحدة بين الأشخاص، وتحقيق الاندماج معهم في الحب وهته الرغبة هي أكبر توقان للإنسان.

وفوق هته الحاجة الوجودية للحب تنشأ بيولوجية أكثر خصوصية تكمن في الوحدة بين قطبي الذكر والأنثى. فثمة أساطير قديمة عن الإنسان تروي بأن الذكر والأنثى كانا شيئا واحدا قبل أن تصلهم يد زيوس، والرغبة في الحب هي تعبير عن العودة إلى صورة الإنسان الأول.

ويعبر فروم عن الولادة الثانية للإنسان من خلال اتحاده بالحب، وأن ما بين الخضوع الذي يعبر عنه المازوخي بالهروب من انفصاليته بأن يجعل نفسه جزءا من الآخر. وفي المقابل هناك الهيمنة التي يعبر عنها السادي بالهرب من انفصاليته بأن يجعل الآخر جزءا منه. وما بينهما ذلك الحب الناضج الذي يحفظ للإنسان تكامله وتفرده؛ لأنه مع حاجته إلى التخلص من انفصاليته هناك أيضا حاجة إلى المحافظة على تفرده. فهو يبحث عن الحب الذي يمكنه من التخلص من عزلته ولكنه في الوقت ذاته يسمح له بأن يكون نفسه.»

أحببت كثيرا تعبيره عن الوحدة بين الاثنين، التي يصفها بكونها مفارقة في أن يكون الاثنان واحدا، ولكن مع ذلك يظلان اثنين. هته الموازنة هي الحجر الناقص الذي يسقط بسببه بنيان كثير من علاقات الحب.

لكن يبدو أنني لم أفهم الكتاب حينها. كان مجرد معرفة دون إدراك تماما ككل معرفتي، الآن فقط أفهم سبب انتحار الكاتب ديل كارنجي وهو مؤلف كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» الذي اعتبره الكثيرون حلا سحريا من خلال الخطوات التي قدمها كارنجي في ترك التوتر والالتفات إلى جمال

الحياة. لكنه برأيي انتحر؛ لأنه لم يكن مدركا لما رمى إليه من خلال كتاباته لإرشاد الناس لطرق تسهل عليهم التماشي مع سيولتها.

إنها حقيقة معظمنا نحن البشر نتغنى بالمعرفة ونفتقر إلى الإدراك، فيبقى الشك يدق أبواب معارفنا التي فقدت مصداقيتها أمام أولى التجارب التي كان يتوجب إثباتها. لا أعلم لماذا يحدث هذا؛ لأنني بدوري لا أفهم ما حدث معي، فعند قراءتي لكتاب «فن الحب» تغيرت الكثير من مفاهيمي عن طريقة الحب. فاعتقدت أنني سأكون أكثر حكمة عند مقابلة حب حياتي كيفما سارت أحداث قصتنا. لكن برمجتي عن الحب من الروايات جعلتني أعيش قصة تشبهها. فكان ذاك الحب الأسطوري الذي حلق بي إلى أطراف السماء، والذي بدأ بمصادفة كالمصادفات التي تحكيها الروايات. فكان أدفأ من البطانية في ليلة باردة، لكن ألمه لم يكن يشبه مرارة القهوة التي تخلفها في الحلق. فألمه كمغادرة الروح للجسد...

آدم

من يعتقد بالعشوائية في سريان الأحداث والتقاء الأشخاص، لا يمكنه فهم الرسائل التي يرمي بها الكون في طريقه حتى يصحح مساره في كل مرة تفلت قدماه عنه. فيستمر بالتخبط في أحداث تؤرقه ويظل معلقا بقصص من المفترض أن تقطع كل روابطها.

هل أنا ممن ينتبهون إلى رسائل الكون؟ طبعا نعم. هل شفرتها كلها؟ ليس بعد، وإلا ما كنت لا أزال تائها، وإلا ما كان لأشباح قصص من الماضي أن تستمر في مطاردتي.

قصة حبي لملاك بدأت كالأفلام تماما. لقد بدت مصادفة جميلة نفت بشاعة يوم من أيامي الحالكة، يوم كان من الممكن أن ينتهي بمصيبة لكنه انتهى بي إلى سريري لأنام بسلام كرضيع وديع. لكن كوني لا أؤمن بالعشوائية جعلني أقتنع بأن دخولها حياتي حينها كان لحاجتي إليها في ذاك الوقت الذي كدت أن أفقد به صوابي. ولا أعلم إن كان لقاؤنا في جحيمي حيث هبطت هي للتنقيب عني أم أنه كان في جنتها حيث حلقت أنا باحثا عن خلاصي.

لقد تعرفت إلى صوت حبيبتي قبل أن أتعرف بها شخصيا. أتذكر ذلك اليوم جيدا، حين هاجت أفكاري التي فقدت سيطرتي عليها. فلم أتمكن من متابعة عملي، لذلك اضطررت إلى نزع مئزري ومغادرة المستشفى حتى دون تفقد جدول مواعيدي لإجراء عمليات جراحية مخطط لها، ولم أفكر في المستعجل منها فتبرأت من دوري كطبيب وهرعت هربا قبل أن يلحظ أحدهم اضطرابي فأبدو بصورة مريبة عما ألفوني عليه من إنسان هادئ، مرتب وحكيم. كنت لأفقد مصداقيتي بين الجميع بانكشاف جزئي الذي أتقن إخفاءه، لكنه يتغلب علي من حين إلى آخر فأفقد سيطرتي بالكامل لأصبح ذاك المخبول المضطرب نفسيا. قد أكسر كل ما حولي من أثاث، أو أسبب الأذى لنفسي بأي طريقة كانت، أضحك وأبكي في آن واحد، أو أتحول إلى جثة هامدة بأنفاس متسارعة في إحدى الأركان المظلمة أحمل رأسي بين يديّ، وأنتحب بتمتمات لا أفهمها ولن يفهمها أحد. كل ما أتذكره قبل أن أجدني خارجا هو الضوء الساطع لأروقة المستشفى الذي زاد من توتري، والأصوات الصاخبة من نحيب وطلب للنجدة في إنقاذ حياة أحدهم الصادر من قسم الاستعجالات، كلها أمور زادت من الألم والتشويش داخل رأسي.

هرولت مسرعا أتوق إلى الوصول لمخرج المستشفى. كان الجو ماطرا زاد الطين بلة، فمع شلالات المياه المنهمرة من السماء ومع حالتي كنت لا محالة خطرا في الطريق على نفسي وعلى غيري، لكن رغم هذا توجهت

إلى سيارتي وأقلعت بها مسرعا دون أي وجهة أريد الوصول إليها غير تدارك تسارع الأفكار داخل رأسي. وعلى غير عادتي شغلت الراديو بسيارتي، ورفعت الصوت إلى أقصى حد له أملا في أن يهدأ ضجيج الأفكار المتضاربة داخل رأسي تحت وطأة الأصوات المرتفعة من المذياع...

كان مضبوطا على تردد:Manchester radio

لم تكن أصوات صاخبة لموسيقى إحدى الأغاني، ولم يكن صوتا ذكوريا لأحد المذيعين لنشرات الأخبار السريعة. بل كان صوتا رخاميا كالسحر ينشر تعويذات عبر أمواج الراديو...

أول ما التقطته أذنيّ، على لسان المذيعة

«The outsider » هو الكتاب الذي اخترت تقديم مراجعته اليوم. كتاب اللامنتمي للكاتب الإنجليزي كولن ولسون العصامي والذي لا يملك من المؤلفات غير هذا الكتاب الذي يناقش قضية يعيشها الكثيرون غيره.»

غيره! اعتقدت أنها تقصدني من بينهم؛ لأنني كذلك دون انتماء واضح.

استرسلت المذيعة في الكلام، بينما خففت من سرعة السيارة مع تحولي بهدوء يشبه توقف إعصار بشكل فجائي إلى آذان كلها مصغية لقولها:

«أثار فضولي في التعرف إلى إحدى طباع الشخصيات التي لا يمكن

تصنيفها ضمن السوية أو غير العاقلة. وأعتقد أنكم ستسعدون بأخذ لمحة عنها برفقتي، وتتعرفون إليها بشكل كامل من خلال مطالعة الكتاب.»

أخذت المذيعة نفسا طويلا ثم أكملت:

«اللامنتمي هو إنسان لا ينتمي إلى أي نظام أو قيم أخلاقية، هو شخصية تشعر بأن الاضطراب والانطوائية أعمق تجذرا من الذي يؤمن به قومه. ناقد متسائل يطرح الأسئلة الكبرى: «من أين هذا الكون؟ من أنا؟ ما الغاية من وجودي؟ هل ما حولي حقيقة؟»

هو لا يجد إجابات أو أي انتماءات لذلك تستمر مشاكله ويستمر رفضه للواقع من حوله. هو شخصية تدعي أنها وحدها من تستطيع أن ترى ما حولها أما الباقي فهم سطحيون، مسجونون، قانعون بسجنهم، لم يذوقوا الحرية، الحرية التي أيضا هو باحث عنها. السجن الذي هو أيضا يسعى إلى الخلاص منه؛ لأنه لا يرغب في أن يظل لا منتميا. مشكلته الوحيدة هي أنه يريد أن يتخلص من اللاانتمائيته ولكنه في نفس الوقت لا يريد أن يكون سطحيا وعاديا، يريد أن يتقدم ولكن لا يدري إلى أين؟ فهو يرى ويعي أكثر من اللازم، لكن ذلك لا يقوده إلى وجهة معينة بل يزيده انفصالا عما حوله، وهذا ما قاد بعضا من اللامنتمين إلى الجنون أو حتى الإقدام على الانتحار.»

تنهي المذيعة حديثها بغصة في صوتها كأنها تشعر بألم هؤلاء التائهين وأنا

واحد منهم. لتختم في نهاية برنامجها الإذاعي الذي لا علم لي بتفاصيله بقولها:

حسنا، انتهى وقتنا اليوم، انتظروا البث القادم مع أفكار جديدة وكتاب جديد. ألقي مع سلامي أمنية لكل لا منتمٍ أن يجد انتماءه وسبيله، وبأن يجد نفسه وسط كل هذا أولا».

... كأن المذيعة تحدثت عن شيء يشبهني، حالتي واضطراباتي التي كنت أعانيها. فأنا كنت ضائعا ابتداء من نسبي الذي لا أعرف عنه أي شيء، إلى الضياع في كل مناحي حياتي التي كانت تشبه الجحيم. كانت نفسي تائهة تطرق في كل يوم بابا تبحث عن موطن يحتضن وحشتها، ويجمع أجزاءها المتناثرة التي كل منها يتشبث بشيء يعتقد أنه ينتمي إليه؛ لهذا بقيت ضالا ومشتتا إلى أشلاء ما كان ليعتقد بوجودها كل من يدعي معرفتي، وكم كنت أبدو في غاية الكمال بأعينهم، وما كان ليصدق أي منهم الحرب الدموية بداخلي والتي شارفت على استنزاف كل قواي في محاولة مني إيقاف قرع طبول معاركها.

طرقت كل الأبواب، بما فيها تلك الأبواب المحظورة من الدرك السفلي؛ لأنها بدت مغرية جدا وتوهمت أن لي فيها سبيلا للنجاة. فأقدمت على تجربة كل شيء قد يخطر ببال أحدهم؛ لأنني كنت في كل يوم أصبح على أمل أن أجدني أو أن أنسى مأساتي الدرامية وأتابع العيش بسلام.

بداية أردت أن أصل فقط إلى طرف خيط قد يصلني بنسبي، لكن مشكلتي في الأساس كانت أكبر بكثير، فعقلي الفلسفي ما كان ليجعلني أنعم بالسلام فقط لمعرفة أصولي ومعرفة قصة تلك المرأة المجهولة التي حملت بي؛ لأنه كان يبحث عن أبعد من كل هذا. فوجدتني أتورط في مسائل أعجب اليوم كيف نجوت من شرها وانسللت من قبضة ظلامها.

من يراني على صورة الطبيب النزيه، لن يصدق أنني جربت فيما سبق العديد من أنواع المخدرات علها تخدروجودي إلى الأبد فتنتهي المهزلة التي أعيشها، أو تدفع بي إلى مكان مثالي تنطفئ فيه كل هواجسي.

بقدر ما كانت تجربتي الأولى بشعة، إلى أنني لا أنكر أنني تمكنت من التحليق عاليا في أحد أبعاد السعادة الوهمية بعد أن تناسيت أعبائي. كما أنها المرة الأولى التي شعرت فيها بالبهجة وهي تغمرني حتى وإن كانت زائفة، لكنها كانت حقيقية بالنسبة لشخص مثلي لا يعرف غير الحزن والكآبة المزمنة. بدا العالم يتأرجح من حولي وكأن كل شيء يرقص على إيقاع غريب مع تولد شعور من النشوة، والمتعة القصوى، وتباطؤ في الأفكار إلى أن اختفت فشعرت بالأمان لعدم وجودها. وعلى الرغم من الغيبوبة التي عشتها آنذاك، لكنني أتذكر جيدا ملامح الحدث قبل أن أستلم جرعتي التي أخذتني إلى الأعلى ثم طرحت بي على الأرض الخشنة بقسوة كسرت نفسي...

صوت الموسيقى الصاخبة وكتلة من الأجساد المتمايلة أمامي، مع صوت الأنفاس المتثاقلة الصادرة من كل ركن وجد في المكان الذي يبدو من الخارج حانة بسيطة لكنه قبو هائل مفصول عن كل ما يدور خارجا.

كما أنني لم أنسَ تلك الفتاة اليافعة بشعرها الأسود الغامق، ونظرة عينها العميقة التي تتسترعلى عجائب ما رأت، المحاطة بظل العيون الأسود مع الماسكرا السائلة على جفنيها المنتفخين لتجعلني أجزم أنها مصابة بالدرقية أو مدمنة على أكل المملحات. ضحكاتها الساخرة التي تعبرعن اللامبالاة وتفاهة الحياة. كانت الفتاة عبارة عن هرج وفوضى متحركة بتنورتها القصيرة، وسيقانها التي انكشفت من تحت جواربها الممزقة، وطلاء أظافرها الأسود الذي تقشر معظمه بعد معركة عنيفة في أحد الأركان من حولنا. وبدا أن معركتها كانت مع الذي تمسك بيده وهي تتقدمه مقبلة نحوي. إنه بائع المخدرات الذي بحثت عنه، كان نحيلا جدا بعظام بارزة، وهالات سوداء قاتمة تحت عينيه الغارقتين في جمجمته، ولون بشرته الشاحب مع شفاه تكاد أن تكون سوداء، وبعد ابتسامته الساخرة كشف عن جذور أسنانه السوداء المتآكلة.

بعد أن تقدم إلي ومد يده حتى يسلمني ما قد طلبت، لاحظت الأوردة المحترقة على ساعديه من جراء حقن المخدر. لكنه كان سعيدا، سعيدا جدا وهذا ما زاد من شجاعتي في الإقدام على تجربة ما يجعله سعيدا؛ فاستلمت جرعة السعادة من يده ووجهت تركيزي إلى الطاولة التي كانت

أمامي، سوداء وملساء تظهر انعكاس وجهي المتوتر، فحدثتني بينما أخذ كل كياني يرتجف: لا بأس في تجربة شيء جديد عله يكون منفذا لي! نثرت كومة السكر الممنوع على الطاولة، أخذت في تقسيمها إلى شرائط تماما كما رأيتهم يفعلون بجواري، وبعدها لففت ورقة نقدية من فئة عشرين جنيه إسترليني وأخذت في استنشاق الرحيق الملعون، فانفجرت الأوعية الدموية داخل أنفي لكن هذا لم يرعبني بل جعلني أقهقه على حالي وأعجب للعالم من حولي كيف آل فجأة. إلى أن استيقظت على الأعراض البشعة لبداية انسحاب المخدر من دمي وتقلص نسبة الدوبامين في دماغي، من ألم رهيب في الرأس وجسد ثقيل مرمي داخل سيارتي التي لا علم لي كيف وصلت إليها وميزتها عن غيرها، حاولت استرجاع أنفاسي الطبيعية والإقلاع نحو شقتي، لكن الألم في عضلاتي جعلني متسمرا لساعات، غفوت بها حتى استيقظت على مزامير السيارات في الشارع بينما ملأ ضوء الشمس كل شيء...

أما عشية سماع صوت المذيعة الذي أدمنته كنت قد تخلصت من الإدمان بشكل نهائي قبل سنوات، لكنني كنت ما زلت أتخبط في الضياع، لكن ليلتها بعد سماع حديث المذيعة لا أعلم كيف اجتزت الطريق حتى وجدت نفسي أمام منزلي، ركنت سيارتي لكنني جلست بها مطولا، أعيد التفكير فيما حدث حينها ولا أنكر أن عاصفة الأفكار الهوجاء قد هدأت إلى أجل تنتظر فيه التمرد من جديد. وكل ما كنت متيقنا منه آنذاك هو أنني سأكون من متابعي البرنامج الإذاعي؛ لأن أسلوب المذيعة قد شد انتباهي

واعتقدت بأنها في كل مرة ستتحدث عن أشياء شيقة قد تسد شيئا من ظمأ نفسي المتعطشة إلى أي شيء قد يقودها إلى سبيلها...

وبالفعل كان ذلك وانتظرت كل بث... لا أعلم إن كان انتظارا إلى سماع مراجعات لكتب جديدة أو انتظارا لسماع صوت المذيعة...

ملاك

كل الدراما التي أعيشها، تسجنني بين قضبان الحسرة والحياة الجافية التي لا أمل من إزهار فروعها التي علقت بفصل الخريف، ولا يصلها إلا شيء من صقيع الشتاء وحر الصيف اللاذع، لكن لا وجود لأثر الربيع فيها. اعتقدت أنني ناضجة كفاية وعلى أهبة لاستقبال الحياة، لكنني فشلت في تجاوز أول امتحان حقيقي. توهمت أنني تعلمت عن الحياة ما يكفي من خلال الإبحار في الكتب، لكنني كنت مفصولة عن الواقع الحي لها كمن ينص القواعد ولا ينصاع لها!

قرأت مرة عن حقيقة الدروس في الحياة، وعن وجوبها لنا من أجل تزكية أنفسنا من خلال شدتها التي لا تزول إلا بعد تعلم الدرس المنشود منها، والذي تختبئ معالمه في طيات الألم المصاحب للحدث. أما الفشل في استيعاب المغزى وراء الحدث، سيجعل منه يتكرر والخروج منه من المحال. مشكلتي أنني أتغنى بالمعرفة لكنني أفتقر إلى الإدراك فمعرفة الشيء مجرد سراب وإدراكه حقيقة ملموسة. أما الآن فعزلتي قد أثمرت شيئا من الفطنة وأعتقد أنني بدأت أفهم كيف تدار الأمور، وبدأت أدرك ما كنت أعلمه رويدا، رويدا...

أنا أرغب في التحرك فعلا حتى أنفض عني غبار السنوات الأخيرة التي قضيتها في النحيب ورثاء حالي، لكن أغلال الماضي لا تزال تقيدني في زنزانة الألم الذي يكاد ينهي وجودي لولا تلك الرغبة الخفية التي تدفع بي إلى الاستمرار والصمود يوما بعد الآخر. وكذلك إلى حد هته الساعة لا يمكنني إغلاق ملف قضية آدم، ولماذا تركني؟ لا يمكنني التخلص من حبي له، ولا

يمكنني الكف عن الاشتياق إلى كل ذرة منه. لا يمكنني التعبير عن غضبي ناحيته واختفائه المفاجئ، فربما لو علمت ذريعته وراء ذلك لما استمررت على حالتي العثة التي بدورها قد ملت من مصاحبتي...

أصبح التفكير المستمر بنفس القضية طوال الوقت يرهقني أكثر مما بي من تعب وإرهاق، وعجزي في تفسير ما حدث ينخر ذاكرتي علي أتذكر شيئا، ولو شيئا بسيطا يقودني إلى معرفة لماذا؟

لكن دون جدوى؛ فأنا لا أتذكر أي شيء يفسر اختفاءه المفاجئ؛ لأن كل أمورنا كانت تسير على نحو ممتاز، ولم نواجه أي مشاكل بيننا. كما أن الحياة كانت ميسرة لنا في كل مناحيها. كان يبدو سعيدا وهذا ما يجعلني أتكهن وأنسج قصصا لها علاقة بماضيه الذي لا أعلم عنه سوى أنه متبنى، وأنه قد عاش تجارب قاسية، لم أجرؤ على سؤاله عن أي شيء واكتفيت بما قصه لي فقط.

كان ذلك الإنسان الهادئ الذي رغم شكله الرجولي إلا أنه يحمل ملامح البراءة الطفولية بين تعابير وجهه. شخص مسالم، كل معالم شخصيته واضحة وفي نفس الوقت كان يحمل من الغموض ما لم أتمكن من تفسير حروفه أبدا. في كل مرة ألقي نظري على عينيه أجدني أغوص في أعمق المحيطات غموضا، ففي نظراته أسرار كثيرة ومعرفتي الجيدة له لم تمكني من كشفها... كيف يفكر تحديدا؟ كيف يرى الحياة؟ صدقا لا علم لي بهذا إلا ما استرقه فهمي البسيط من كل أحاديثنا والوقت الذي قضيناه سوية.

ولا يمكنني إخفاء حقيقة أنني كنت أرتاب بشيء من الخوف عما يتعلق به، وكأن شيئا كان يحدثني من حين إلى حين، بهمس مريب يحذرني لأن لا أأمن له. أتراه كان حدس الأنثى الذي يتنبأ بالكارثة قبل وقوعها؟ وهل علي الآن أن أدين نفسي لأنني لم أصدق ما همست به لي روحي عن شيء مما حدث؟ لكنني سأكون جاحدة إن لم أعترف بأنه لم يؤذني قبل فعلته هته، وأنه كان ذلك الرسام الذي عدل لوحاتي، واستخدم فرشاته السحرية من أجل إدخال ألوان إلى حياتي غير الرمادي. كان المعزوفة التي تنقص موسيقاي حتى وإن انتهى المشهد بيننا كالعزف الذي أداه الموسيقيون في أثناء غرق سفينة التايتانيك.

آدم

«أخيرا حل يوم الأربعاء »

أتذكر أنها أول جملة تفوهت بها صباح ذلك اليوم الذي شغل انتظاره تفكيري. فالانتظار يجعل من الزمن مطاطيا متراخيا لا يشبه ما يدرس في الفيزياء النمطية، لكنه يدعم النظرية النسبية لألبرت أينشتاين حين حاول أن يفسرها بأبسط مثال يفهمه غير العقل الفيزيائي في قوله: «ضع يدك على صفيح ساخن لمدة دقيقة وستشعر أنها ساعة، اجلس مع محبوبتك لمدة ساعة وستشعر أنها دقيقة، هذه هي النسبية.»

وبعد مرور أطول أسبوع، انتظرت عشية بث المذيعة بفارغ الصبر علها ستتحدث اليوم كذلك عن شيء يشبهني ويجعلني أشعر بالأمان؛ لأنني لست الوحيد الذي يعاني فكرا مضطربا. فالإنسان ينجذب دوما إلى البيئة والمحيط الذي يعكس له حقيقته الداخلية كخدعة تدعم استمرار وجوده، أو تدفع به إلى تحسين عالمه الداخلي بعد أن رأى بشاعته بوضوح، تنعكس على الأحداث من حوله. وكل ما أردت رؤيته بوضوح حينها نفسي التي هجرتني وجعلت مني جسدا فارغا يدار بأفكار تعلمها ويتعلمها. أردت أن أتعرف بشكل عميق إلى طبيعة تفكيري، ربما حينها يمكنني أن أجد

المنبع الرئيسي الذي يغذي هوسي واضطراباتي فأسده وأنهي وجوده عن بكرة أبيه، حينها فقط سيفسح لي المجال حتى أجدني...

بعد اعتدالي في جلستي على مقعدي الأمامي لسيارتي كطالب مجتهد ينتظر معلمه وفي عينيه شرارة تنبع من صدق في التعلم. ومباشرة بعد تشغيل الراديو الذي بقي طيلة الأسبوع على تردد أمواج إذاعة :

Manchester radio

لم أنتبه لما جال بين المذيعة والمتصلين بها، لمناقشة موضوع الحلقة الذي لا أذكر ما كان؛ لأنه ليس هدفي. لكنني اغتنمت الفرصة في الانتشاء من صوت المذيعة الذي لامس قلبي بدفء لم أعهده. إلى أن جاء ركن الحصة الذي انتظره:

minutes for a book

فسرت بي رعشة جعلت انتباهي ينتصب...

على لسان المذيعة:

«كما تعودتم مستمعينا الكرام ننهي لقاءنا بتقديم مراجعة لكتاب، ولأكون صادقة معكم لا أعلم لماذا طيلة الأسابيع الأخيرة، لدي رغبة في اختيار كتب تصب في علم النفس وسيكولوجية التفكير؟»

بعد صمت ملحوظ لا علم للمستمعين ولا علم لي عما جال بخاطر المذيعة حينها، استرسلت في الكلام وتابعت قولها:

«لقد اخترت كتاب اليوم بعناية عله يكون صوتا لأولئك الذين فقدوا التعبير عن أحوالهم؛ لأنهم يعانون في صمت، بسبب فقدان اتصالهم بالواقع وعدم تقبل تصرفاتهم وسط من حولهم...

علّ هذا الكتاب يكون بوابة لكي يفهم البعض ما يمر به أقرب الناس إليهم، عله يكون سببا في إزالة الأحكام التي نطلقها دون دراية منا للألم الذي تسببه لمن لا حول ولا قوة له في شرح نفسه؛ لأنه بدوره يتخبط في وحل بركة من الضياع، كلما حاول الخروج منها تشتد قبضة الطين على جسده تجره بهدوء إلى باطن الأرض... علّ هذا الكتاب يكون أملا لمن أظلمت كل الزوايا من حولهم، فاعتقدوا أنهم فقدوا البصر بينما بصرهم حديد، وكل ما في الأمر أنهم يتواجدون بمكان مظلم وحسب...

كتابنا هو: «عقل غير هادئ»، سيرة ذاتية لكاي ريد فيلد جاميسون حول الهوس، الاكتئاب والجنون.

جاميسون أستاذة جامعية في علم النفس، وحصولها على الدكتوراه في علم النفس لم يمنعها من أن تكون مصابة باضطراب نفسي، حيث كانت جاميسون مصابة بذهان الهوس الاكتئابي Bipolar؛ هو اضطراب عقلي يختل معه سلوك الإنسان ويفقد اتصاله بالواقع، فيشعر بالتشـــوش

وتذبذب في المزاج، وشعوره بالهلوسات بحيث أن الـ Bipolar يتراوح ما بين الهوس والاكتئاب لذلك سمي ثنائي القطب.»

بعد تنهيدة طويلة من المذيعة، بينما تخيلتها كأجمل امرأة في الكون، تعدل السماعات الضخمة التي تغطي أذني كل مذيع مثلها، وبسذاجة تساءلت إن كان لها شعر طويل أم هو قصير؟ تراه مجعد يترجم أنوثتها الصاخبة أم هو أملس يحاكي نعومتها؟ ألها عينين واسعتين كسماء الصحاري أم هما عينان ضيقتان تخبئان الكثير من الأسرار؟ أيقظتني من سرحان المراهقة عندما انتهى صمتها وتابعت قولها:

«قررت جاميسون بشجاعة أن تكتب عن مرضها الذي كان من الممكن أن يهدد منصبها في تدريس علم النفس. لكنها كتبت بكل صراحة، حيث صرحت جاميسون بأن حالتها قد شخصت من قبل أستاذها في الجامعة لسنتها الأولى من خلال اختبار رورشاخ لتقييم الشخصية.»

كأن المذيعة اطلعت على ما يدور في خلدي وخلد الأغلبية من المستمعين عما تقصده باختبار رورشاخ بقولها: «اختبار رورشاخ هو اختبار نفسي تسجل فيه تصورات الأشخاص عن بقع من الحبر، ثم تحليلها باستخدام

التفسير النفسي لما شكله خيال الشخص من صور في بقع الحبر. ويبدو أن نتائج جاميسون قد أسفرت عن معاناتها من اضطراب ثنائي القطب الذي قد يؤدي إلى الإبداع كما بإمكانه أن يؤدي إلى الانتحار.

دونت جاميسون في كتابها نصائح من خلال تجربتها مع المرض، تساعد المريض في تقبل مرضه. وأكثر مقطع أثربي من الكتاب هو تدوين جاميسون لتقرير الطبيب عن حالتها مرفقا بالتواريخ. لم يبدُ الأمر بغاية السهولة، وأقسم أنني تمكنت من لمس ألمها من خلال عبارة الطبيب في تقريره عن حالتها: «المريضة ترى الدواء كوعد بالشفاء وكوسيلة للانتحار إذا لم ينجح، إنها تخشى إذا أخذته أن تكون قد قامرت بالورقة الأخيرة.». «

بجملتها الأخيرة هته. لا يبدو أن المذيعة فقط من تألمت مع جاميسون؛ لأنني أنا أيضا شعرت بغصة كأنها كرة من الشوك قد علقت في حنجرتي. ودون أي تركيز تابعت الاستماع إلى قول المذيعة: في كتابها عبرت جاميسون عن شجاعتها في تقبلها واعترافها بمرضها، وأعتقد أنها أول وأهم الخطوات في التشافي، كما أن جاميسون لم تغفل عن إدراج دور وأهمية الحب في التخفيف من حدة المرض في تعبيرها:

«لا يوجد مقدار من الحب مهما كان، يستطيع أن يعالج الجنون أو يجعلك سعيدا أثناء نوبات الأمزجة السوداوية. الحب يستطيع أن يساعد ومن الممكن أن يجعل الألم أكثر تحملا، ولكن إذا لم يكن الحب هو الترياق الشافي، فإنه بكل تأكيد يمكن أن يعمل كعلاج مساعد ومؤثر جدا.»أنا لم أخضع لاختبار رورشارخ حتى أجزم أنني من المصابين بثنائي القطب، لكنني أجزم أن صحتي النفسية لم تكن بخير على الإطلاق. وذاك الجنون الذي تحدثت عنه أنا مصاب به، لكنني لم أمتلك الشجاعة قطعا لأفصح

عنه. أنا لم أمتلك الشجاعة لتقبل حالي، كنت رافضا لي ولحياتي حتى نشأت المقاومة لدي مما زاد الطينة بلة. أنا لم أتحلَّ بالشجاعة حتى للاستماع إلى الأفكار التي كانت تهمس بها لي نفسي المسكينة من أجل أن أحررها من سجنها، لكنني فشلت في بادئ الأمر على مر سنين طويلة، ففي كل مرة كنت أهرب من تلك الأفكار بأن أشغل تفكيري عنها بأي شيء أجده أمامي يلهيني إلى حين هدوء وانطفاء آخر شرارة من لهيب تلك الشوشرة الفكرية. أوتعلمين؟ أنا صدقا أتفق تماما مع الكاتبة، عندما تكلمت عن الحب بأنه يمكن أن يجعل من الألم أكثر تحملا لكنه ليس بإمكانه معالجة الجنون، فلو كان له ذلك لما اضطررت إلى الهروب بعيدا عنك يا ملاكي...

الفصل الرابع

«أخطر أمراض القلب: الذاكرة القوية»

نزار قباني

ملاك

«هادئ لكنه مزدحم بالفوضى التي تحدثها رياحه وأعاصيره، لياليه موحشة لكنها مليئة بالأنس للأرواح المرهفة، قاس لكنه يعلم القلوب أهمية الدفء.

يرون في الربيع فصل الحب، لكنني أرى في الشتاء فصلا للهيام والحب، فكل حبيب لا يكف عن الارتجاف إلا بعد الالتفاف بدفء عيون حبيبه، ولن يُسكِت صوت الأعاصيروالرياح الهوجاء بداخله إلا صوتُ حبيبه، ولن يتعافى من اكتئابه الموسمي إلا بترياق حبيبه. حتى القصص التي تولد من رحم الشتاء تتعطر منه وتتنكه بتوابله فتحمل طابعه المتناقض في السلم والعداء، في القسوة والليونة.

فصلي المفضل، الشتاء حيث يزداد نشاطي وحبي للحياة، ولا أعلم لماذا أرتبط بشدة بهذا الموسم! فيه يزورني همس يطرب نفسي بالطمأنينة ويلقي في مسمعي سرا بيني وبينه، سر يجعلني أنتظر كل شتاء على مضض، سر لقائي بحبيبي الذي يعيش داخل كياني. أنا لا أرسم عنه أي صورة لكنني أعلم بوجوده وأعلم أنه أصبح قريبا لأنني أكاد ألمس إحساسي بتواجده».

كانت تلك أول عبارات دونتها على مذكرتي يومها قبل خروجي من المنزل، وبالفعل كان حدسي صادقا...

استيقظت يومها بابتسامة كعادتي من أجل يوم جميل، لكن على غير العادة دامت ابتسامتي طويلا، حتى وأنا أنظف أسناني بقيت مرتسمة على وجهي وهي تخاصم فرشاة الأسنان خاصتي. أزحت الستائر عن النافذة لأرى ما يرفع نشوتي ويغذي سعادتي؛ يوم ممطر يكمل هطول أمطار المشاعر بداخلي، فتحت خزانتي واخترت كنزة صوفية سوداء مع بنطال أسود وبالطبع وشاح أسود. أستغرب فعلا ممن يعتبرون الأسود لونا للحزن! وهو واللون الأبيض سيانِ، والاختلاف بينهما بسيط، بحيث معشوقي الأسود اختار احتضان كل ألوان الطيف وجمعها في جوفه بينما الأبيض اختار عكس كل ألوان الطيف والتباهي بها.

أنا أستبشر خيرا برؤية الغراب وهو يتباهى بريشه الأسود، وأعتبر أجمل أيامي هو ذاك الذي صادفت في صباحه قطا أسود... زينت وجهي بكحل أسود مع لمسة مساحيق من السعادة والأمل، بحماس ملتهب من أجل بداية دورة جديدة في نادي تعليم اللغة العربية. فبالإضافة إلى كوني مذيعة، كنت أُعلم اللغة العربية لأبناء العرب المقيمين في إنجلترا.

بعد ارتشاف قدحي من شاي الأشواجندا الذي يعمل على خفض هرمون الكورتيزول المسؤول عن التوتر، هذا ما قرأته على علبته وأصدقه لأنه يجعلني أستسلم إلى الراحة في خضم أي ظرف موتر. وعلى أنغام موسيقى

شرق آسياوية يتغزل فيها الناي بأوتار قيثارة الحورية الأسطورية التي ترد عليه بأنغام أكثر دفئا، لكن سرعان ما ينقطع بينهما الغزل بعد تدخل شوق وحنين الكمان للقيثارة معبرا عن حزنه الدفين والعميق لها، لكن قيثارة الحورية الأسطورية متعلقة أكثر بناي المحارب الذي أنهكه التعب من معارك الحياة...

بعد أن احترق لساني من شايي الساخن أثناء تهاني في المسرحية الموسيقية التي تخيلتها، هممت بالخروج من المنزل وإذا بهاتفي يرن على إيقاع رسالة من أمي:

«صباح ملائكي لملاكي، لقد خرجت مبكرا لأنه يجب علي مراجعة بعض الأمور في المطعم، اهتمي بحالك وتدفئي جيدا قبل الخروج من المنزل».

لن تتوقف أمي أبدا عن رعايتها لي حتى بعد سني هذا الذي ناهز السابعة والعشرين.

كان يوم الثلاثاء، الثالث والعشرون من شهر كانون الثاني، يوما من أيام الشتاء الباردة التي تعود فيها البرد على لسع وجهي فور مد جسمي خارج باب المنزل، لكن في ذلك اليوم وأنا خارجة عانقني نسيم دافئ استغربته والتفتُّ أبحث عن مصدره وسط أكوام البرد المتسلحة خارج البيوت تترصد كل كائن. لا أعلم إن شعر الجميع بالاختلاف يومها أم أنني الوحيدة التي أشرقت عليها شمس تدفئها...

تحت زخّات المطر الناعمة التي كانت تنقر سقف مظلتي، اجتزت شارع سكني بغية اللحاق بحافلة تقلني إلى مكان عملي، لأنني لا أفضل قيادة سيارة خاصة عند تنقلاتي فأنا لا أحبذ التركيز في الطريق وإشغال ذهني بالانتباه لتوجيه السيارة. أنا أفضل الجلوس بجوار نافذة الحافلة شاردة الذهن أسبح في أحلامي وخيالي، ألقي نظرة على واقعي في كل انعطاف بالطريق يهز داخلي ويذكرني بأنني ما زلت على كوكب الأرض.

حيّيت جميع الزملاء ثم دخلت الصف المخصص لي، حيّيت الحضور من المبتدئين في صفوف اللغة العربية والذين هم من أصول عربية ويحملون الجنسية البريطانية، أو من جنسيات عربية مختلفة يقيمون بإنجلترا. كانوا من أعمار مختلفة ولكلٍ ذريعته في تعلم لغة الضاد؛ فمنهم من كانت إرادة والديه في تعليمه حتى لا تضيع عروبة لسانه، ومنهم من ولد وعاش هنا لكنه سيعود إلى وطنه الأصلي وعليه تدارك اللغة من أجل الالتحاق بالمدارس في الدول الناطقة بالعربية...

عرّفت عن نفسي: «أنا ملاك، ملاك فقط. ومن المفترض أن نقضي معا وقتا ليس بالقصير، أرجو من الله أن يجمعنا على الخير والمحبة».

هممت بسؤال كلٍ عن اسمه وعن ذريعته في التعلم من أجل تلطيف الجو وبداية موفقة، لأن الجميع غرباء بين جدران القاعة.

«هل بإمكان...»

لم أنهِ جملتي وإذا بصوت يقاطعني: «ملاك.. قبل أن تبدئي درسك الأول.. انتظري من فضلك، فهناك مشترك جديد في نادي تعلم العربية وهو من المستوى الأول، أي ضمن صفك. يبدو أنه قد فوت موعد التسجيلات، هو الآن بصدد إنهاء بعض الإجراءات بغرض انضمامه إلى النادي».

كانت تلك زميلتي من إدارة النادي.

هتفت بعدها للموجودين: «آسفة، لأننا مضطرون إلى الانتظار بعض الوقت حتى نتمكن من بداية أول درس لنا».

في أثناء انتظارنا، أخذ الحاضرون يكسرون أجواء توتر اللقاء الأول بالهمس وتبادل التحية والابتسامات، بينما كنت أتفقد هاتفي وأطالع جدول أعمالي في الإذاعة.

مرت حوالي ربع ساعة، وإذا بالباب يفتح بعد قرع خفيف... فانفتح الباب وانفتحت معه أبواب جنتي وجحيمي؛ لقد كان شعلتي التي أنارت لي طريقي بنورها وأحرقتني بلهبها!

أقبل شاب في غاية الوسامة بملامح أوروبية لا تشوبها شائبة، ومن غير عادتي شعرت بانجذاب رهيب نحوه، أطلت فيه النظر حتى إنني ما زلت أتذكر تفاصيل هندامه يومها: شعر أشقر بتسريحة عصرية غير مبالغ فيها، قميص أزرق بخطوط بيضاء بسيطة تعلوه سترة جلدية سوداء مع بنطلون جينز بلون أزرق قاتم...

- أبوسعي الجلوس؟

أفقت من تأملي به على وقع سؤاله وأنا أشعر بالخجل بعد سهوي.

- نعم، طبعا سيدي تفضل.

لا أصدق من يزعم أن المحبة تأتي بعد العشرة، فللأرواح أسرار لا تبوح بها للجميع. ومن الغباء فعلا تصرفي ببلاهة حينما تخلصت من كل أغراضه وحرقت كل صوره، زاعمة أني بهذا سأتمكن من تجاوزه، لكنه محفور بداخلي وانعكاس وجهه مطبوع في نظري، حتى أناملي ما تزال تحتفظ بكل تفاصيل وجهه، وانحناءات جسده. حتى رائحته لا تزال ملتصقة بجلدي الذي يصعق تحت المياه الباردة بحمامي الذي كنت أهرب إليه إذا ما اشتد بي الألم من جراء انهمار الذكريات على رأسي دفعة واحدة. أنزوي في ركنه تحت مياهه المثلجة أحتضن بقايا جسدي النحيل حتى تخدر كل حواسي، ولولا الدموع الحارقة النابعة من فؤادي المشتعل لتجمدت يوما ما...

آدم

هو نفسه صوت المذيعة التي اعتدت انتظارها كل يوم أربعاء. لكنه بدا مختلفا بهيئة ما! ليس بخصوص نغمته أو إيقاعه، وإنما اختلافه يكمن في الرجفة التي أحدثها بداخلي والتي أيقظت جمال الحياة في جوفي بعد نفضها للغبار الذي تكدس حول أفكاري السوداوية. هل بالغت في تحجيم الحدث؟ قطعا لا. حتى إنني اعتقدت أن الجنون قد ملّ مني وأراد التخلص مني بأي طريقة كانت، فكانت ملاك شماعة مناسبة يسلمني إليها ليبحث عن عقول فتية أخرى يعشش بها. لقد نجح بالفعل صدى صوتها في الطغيان على أصوات الانفصام التي تفننت في خرابي وهلاكي. وإلى غاية اليوم لا أعلم من قادني إليها، فقلبي يتفاخر بأنه من وجدها أولا وبأنه من رسم وخطط للقائها، أما عقلي فيعارضه ويستهزئ به ساخرا من إيمانه بشيء كهذا؛ فهو يتحجج بأنه من وجدها أولا لأنه انساق إلى المواضيع التي تطرحها وتفسر طبيعته المضطربة... فعلا ليس مهما من وجدك أولا يا ملاكي. عقلي المضطرب، أم قلبي الذي أتعبه عذاب نفسي التائهة فراح يبحث لها عن وطن يلم شملها، فكنت خير الأوطان، لكن الحب وقتها لم يكن كافيا... لم يكن كافيا يا ملاكي لأنه كان من الضروري أن أجد حلا جذريا لمشكلتي؛ فبعد الإدمان على المهدئ الذي منحني إياه حبك لم يعد يجدي نفعا، وتزامن كل هذا مع فقدان موهبتي في التستر والتمثيل بالسلامة

بينما تنجرف بداخلي جبال الصلابة والرزانة، فلم يعد الاختباء حلا...

استيقظت صباح ذلك الثلاثاء بعد ساعة كنت قد نمتها مباشرة بعد وصولي إلى المنزل، لأنني تقريبا أمضيت الليلة بالمستشفى، ليس لأنها كانت مناوبتي وإنما هي عادة اخترتها خير من أن أجدني بأحد الأوكار البشرية، أمارس عادات الإدمان التي تخلصت منها بصعوبة، وهي الشيء الوحيد الذي طلبت فيه المساعدة، فكان للجماعة أثر قوي ساعد معظم المنظمين إليها في التخلص من اللعنة. لكنها لم تكن لعنتي الوحيدة، لعنتي كانت أنني تائه أتخبط في صحة نفسية شنيعة، ولم أمتلك يوما الشجاعة من أجل متابعة العلاج عند أحد الأطباء لأنني اعتقدت أن جذر مشكلتي أعمق بكثير، كان مشكلا وجوديا ولّده نسبي المجهول، وليتها بقيت مسألة نسب فقط؛ لقد تطور الأمر إلى أن أصبح كل وجودي مضطربا...

كعادتي استقبلت الصباح بألم رهيب في رأسي، ولم يزده سوءً النوم في أوقات متأخرة، وإنما تلك الأصوات المقيتة والأفكار التي تشبه دوامة إعصار ضرب إحدى المدن وأقسم على دمارها. أصوات وأفكار هوجاء متمردة استوطنتني وأرغمتني على رفع راية الاستسلام والخضوع، لكنني بروح محارب تأبى الاستسلام وتكافح من أجل حريتها واستقلالها... لم أفهم يوما طبيعة تلك الأصوات لأنها كانت غير واضحة! كما أنني لم أفهم يوما تفكيري! أما قراراتي فغالبا ما تكون مباشرة دون هدنة، أناقش فيها سبب اتخاذي لقرار ما. لست ممن يفكرون طويلا بشأن واضح لأنني لم

أكن أفهم ماهية التفكير أصلا. كل ما كنت موقنا به هو أنني أسمع أصواتا غير مفهومة داخل رأسي، أما قراراتي فتنتج كلها في آخر لحظة تسبق الحدث الذي أنا مقدم عليه... حدقت طويلا في سقف الغرفة، وإذا بي أتذكر كلام المذيعة في بث الأربعاء الماضي:

«من فضلكم تفقدوا صفحتي، ستجدون إعلانا ورابط التسجيل في نادي تعلم اللغة العربية لمن يهمه الأمر، لأننا سنستهل دورة جديدة ابتداء من يوم الثلاثاء، الأسبوع المقبل».

أخذت يدي اليمنى تتحسس القلادة التي أرتديها، وبدل التحديق المطول في سقف الغرفة، أشحت بنظري إلى القطعة المعلقة بالقلادة. قلت في سري: «أعتقد أن دورك قد حان. ربما ستكشفين لي بعضا من الأسرار ولو لم يكن فيك أي سر، لكنك بقيتِ تعانقين عنقي كل هته المدة لغاية ما، ربما أنت لا تحملين سرا ولكنك سبب لسبيل جديد».

هرعت مسرعا إلى هاتفي، تفقدت صفحة الفايسبوك الخاصة بالمذيعة، بحثت عن الرابط الذي تحدثت عنه، لكنه بدل أن يفتح صدرت منه ملاحظة تنوه بانتهاء التسجيل... لم أستسلم حينها، تابعت البحث عن النادي لأجد كل المعلومات المتعلقة به، وكل ما أردته هو عنوان مقره... لحسن حظي، لم يكن ببعيد، قفزت من فراشي كطفل صباح أيام عيد رأس السنة متلهف لفتح هديته، ارتديت ما وجدته أمامي من ملابس، شغلت سيارتي وانطلقت نحو حياتي الجديدة. وكانت المفاجأة حادث سير

سدّ كل المداخل والمخارج إلى المنطقة التي كنت أقصدها آنذاك. لم يبدُ أمر انضمامي إلى النادي بغاية الأهمية لكنني توترت بسبب زحمة السير التي كان من الممكن أن تأخذ وقتا أطول فأفوت مسألة النادي. حاولت أن أهدأ بعد استنشاق نفس عميق، وقررت بشكل نهائي أنني سأعود أدراجي، أتجه إلى شقتي أو المستشفى. فعلا انتهت زحمة السير من جراء الحادث الذي لم ألم بتفاصيله، لكنني وجدت يديّ توجهان مقود السيارة نحو مكان النادي الذي وصلت إليه في ظرف قصير، لا أعلم كيف تملصت من المخالفة بعد القيادة بتلك السرعة...

كان النادي محشورا في إحدى زوايا الشارع، على باب المدخل علقت لافتة مكتوبة بحروف عربية كبيرة، طبعا لم أتمكن من قراءتها حينها لكن اعتقادي كان في محله؛ نادي تعلم اللغة العربية، هذا بالتحديد ما كان مدونا عليها... تنفست الصعداء ودخلت، وفي كل خطوة خطوتها إلى الأمام كان خفقان قلبي يتسارع شيئا فشيئا حتى شعرت وكأنه سيخرج من بين أضلعي، توجهت إلى الإدارة أو ما شابه، أخبرتهم برغبتي في الانخراط بالنادي. مباشرة بعدها تمت إجراءات تسجيلي، وبعد دفع الرسوم المستحقة أخذتني إحداهن إلى القاعة المنشودة. وفي طريقنا أخبرتني بأنني سألتحق بالمستوى الأول والذي سيكون تحت إشراف ملاك.. المذيعة ملاك، حينها سرت رعشة باردة على طول عمودي الفقري، وفي لحظة سألت نفسي: «ماذا دهاني؟ يا لَسذاجتي! هل بإمكان تعلم لغة قد نقشت إحدى كلماتها على قلادتي أن يقودني إلى حقيقتي؟» لكن مع كل التردد،

تابعت المسير. قاطعتْ السيدة التي رافقتني الحوار الذي دار بيني وبين نفسي بقولها

- تفضل سيدي، هنا تحديدا سيكون صفك.. حظا موفقا.

شكرتها، وبعد انصرافها قرعت الباب!

لا فرق بين صوتها عبر الأثير أو عبر الهواء مباشرة بالقرب مني. كانت كإحدى شخصيات أفلام الكرتون؛ أميرة بشعرها الكستنائي الطويل المنسدل على منكبيها، يداعب خصرها. كانت النسخة العربية من «سنو وايت»...

بينما تغزلت بها في سري، كنت أعلم أنها هي أيضا تحدثت عني في داخلها، لأنها أخذت وقتا وهي تنظر إلي شاردة، حتى أحرجها فعلها هذا لأنها أجفلت عندما طلبت منها: «أيمكنني الجلوس؟» واشتعلت وجنتاها خجلا لأنها أدركت فعلتها البريئة.

كانت كل الطاولات المنفردة في الغرفة مشغولة بأحدهم أو إحداهن، إلا تلك الطاولة المحشورة في أحد أركان القاعة، والتي يبدو أنها تركت لي بإرادة خفية علمت بقدومي، لأنها كانت تشبهني بانزوائها وانحشارها في الزوايا المظلمة!

كل الأجواء جعلتني أتذكر أول يوم لي في المدرسة... المدرسة التي كنت أحلم بها ومعدتي خاوية علها تؤمن لي لقمة العيش، وتصنع لي وظيفة أبني بها

حياة كريمة؛ لأنني رأيت حينها أن التعليم هو السبيل الوحيد للنجاة في بلد كهذا. حرمت من ارتيادها لما يزيد عن السنتين على الموعد المحدد لكل طفل، لأنني كنت قد هربت من الميتم ولجأت إلى الشارع مع المشردين، نتوسد سواعدنا، نفترش الأرض ونلتحف السماء في أجواء شتوية لا مدافئ فيها تحتضن بِحَرِّها عظامنا التي تحتمي بجلدة قد عُلمت عليها آثار تعنيف الحياة لنا، تقينا من برد فصل الشتاء، في بلد تموت حيتانه من البرد، نتجمع في أحد الشوارع فنمد أيدينا للقلة التي تحن قلوبها بعيدا عمن يطاردنا لأننا أفسدنا بتشردنا منظر مدينة أوروبية مرموقة. تتكرم علينا الحياة بشيء من جمالها في أنغام موسيقي بدوره يشحذ معنا، لكنه أعلى منا شأنا لأن له قيمة يقدمها ونحن لا... تعاقبت الأيام في سباق بينها على من يكون الأول الذي يشهد انتهاء وجودي. إلى أن جاء أحد الأيام، يوم كان سيعد الفائز لولا تدخل أحدهم، إنه ملاكي الحارس الذي وقف عند رأسي بينما كنت أعتقد أنني ألفظ آخر أنفاسي تحت وطأة الجوع والبرد، أشتم الحياة لظلمها وألقي باللوم على القوى العليا أيا كانت... إنه والدي بالتبني الذي أخذ بيدي إلى حياته، وزوجته اللئيمة التي اغتنمت كل فرصة لتذلني بقولها الجارح ولم يسبق لها قط أن نادتني بغير «اللقيط». لكن زوجها منقذي، أغدق علي بكل ما حلمت به وما لم أحلم به، إلى أن وافته المنية وبقيت وحيدا مرة أخرى...

فعلا عجيب أمر الذكريات حينما تتدفق كشلال فقط بلمسها شرارة تلهبها تماما كذلك اليوم الذي أصبحت فيه طالبا من جديد بين يديك.

ولم‌ايكن اسمك «ملاك» مصادفة قط، لأنك كنت ملاكي الحارس بعد ملاكي الحارس الأول، والدي.

أخذت معلمتي تتحدث عن اللغة العربية وغناها، وقالت إنها من أصعب اللغات في العالم لذا يجب علينا التحلي بالصبر حتى يسهل علينا تعلمها، ثم أخذت تسأل كل الموجودين واحدا تلو الآخر عن ذريعته من وراء تعلم هته اللغة. قبل أن ألج كليا إلى مخيلتي، أخذت أراقبها وجسدها النحيل الذي يتحرك بهدوء وخطوات متناسقة تشبه قصيدة تنتهي بنفس الموازين، أما حركة يديها، فكانت كأنها عزف على الكمان.

شردت في تفكير لم يجل بخاطري قبلًا رغم أنني تساءلت كل يوم عمن تكون، ولكن لأول مرة تمكنت من نسج صورة لها في مخيلتي المرهقة. هل كانت فتاة عربية بشعر أسود حريري وعيون سوداء واسعة وعميقة تخفي ما يخفي جوف المحيط؟ فتاة عربية مغتربة في إنجلترا من أجل التعلم، لكنها وجدت نفسها مغرمة تائهة في حب وأحضان شاب أوروبي لم يكن وفيا كفاية فتخلى عنها بعد أن سرق منها ما لا يمكن عده من القبل؟ أم أنها فتاة أوروبية يافعة مقبلة على عيش أجمل أيامها لأنها وجدت الحب الذي أخبرنها صديقاتها أنه غير موجود، لكنها وجدته في شاب عربي مغترب، حمل معه شهامة وكرم الصحراء فأغدق عليها بالعشق حتى ذابت به ولم يعد لها وجود إلا به هو، لكنه لم يكن بشهامة الصحراء لأنه اختفى ولم يترك لها منه سوى قلادته من الفضة الخالصة وشيء من جيناته تسبح وتتسابق في رحمها؟ ولسوء حظي بها وُجدت أنا.

أيا كانت قصتها، كيف هان عليها تركي مجهول النسب حتى أصبحت مجهولا في الحياة أيضا؟

بغصة في الحلق وألم يعتصر قلبي، أفقت من السيناريوهات التي خلقتها مخيلتي عن أمي المجهولة على سؤال المعلمة ملاك بعد أن أجاب كل الطلاب على سؤالها:

«وأنت يا سيد، هل لك أن تطلعنا على ما جاء بك إلى هنا ودفعك إلى مشاركتنا هذا الدرب؟»

حدقت فيها طويلا بينما حاولت أن أجد لها إجابة لكن تدخل شيء عجيب لم أختبره من قبل، حيث تسربت إلي ذكريات من زمن آخر أو أزمنة أخرى. فرأيت شريطا مفصلا عن أحداث جمعتنا معا، أنا وهي. وبينما حاولت أن أعود إلى اللحظة حتى أجيب عن سؤالها وهي قريبة مني جدا على نحو جعلني كمراهق أحمق يتلعثم في الكلام أمام فتاة يحاول الإفصاح لها عن حبه... سهوت في عينيها، فلم تبدُ غريبة عني بعد ذلك. لا أعلم مدى صحة تعدد الحيوات، وأن الإنسان لا يختبر حياة واحدة فقط، لكنني بشيء من اليقين المجهول مصدره صدقت بأن الوجود قد جمعنا قبل هته الحياة. حيث كنا نعني الكثير لبعضنا!

أخيرا استرسلتُ في الكلام لأجيب عن سؤالها بعدما اعتلى وجهها شيء من

الخجل والحيرة بسبب عيني التي التهمتها. لكن جوابي كان عبارة عن سؤال أيضا:

«هل لي أن أحتفظ بهذا لنفسي؟»

ملاك

أجاب الجميع إلا هو! ولا أعلم لماذا يختار بعض من البشر سلوك أشد الطرق تعقيدا؟ فلا هم فهموا ما بهم، ولا نحن لنا المقدرة على كشف غموضهم.

انتهى أول يوم ببعض الأفكار الجديدة، والمشاعر المختلطة والغريبة، لا هي بمريحة ولا هي بسيئة، لكنها بشكل ما كانت لذيذة جدا! وجدت نفسي أتساءل: «لماذا علق بفكري هو دون سواه؟ يا ترى ما هي قصته؟ وما هو سبب ذلك الألم والحزن العميق الذي يسكن عينيه؟ لماذا انتابتني عاطفة شديدة ناحيته؟» ولوهلة شعرت وكأنني ملجأ قد هرع إليه محارب من ساحة المعركة بعد أن انتهت كل الحيل أمامه، خلت أنني أسمع صوته يطلب مني النجدة، في لحظة من الزمن رأيت فيه صورتي وأنا طفلة أهرول إلى حضن والدتي بعد قضاء ساعات من التيهان في الشارع بعد تملصي من يدها وسط زحمة من الناس الغرباء...

عدت إلى المنزل ككل يوم مرورا بذات الشارع الذي كنت أقصده عنوة لما فيه من أجواء تلامس قلبي، فكانت نفس البنايات الموسومة بشبح أوروبا من القرون الوسطى، هو ذاته معبر الترامواي بانحناءاته الملتوية وسط

الشارع، وها هو ذا نفس محل بيع الورود الذي يحرص صاحبه على أن يجعل أزهار البابونج تتقدم سائر الأزهار، لا بد أن حبيبته كانت مولعة بها، يبدو في عقده السابع، أحد الجنود السابقين إبان الحرب العالمية الثانية، لأنني أستطيع أن أتفرس في وجهه ملامح المحارب الذي قسا قلبه لفقدان الأحبة، وخَشُنَ جلد يديه من ملمس الأسلحة، واحترقت حباله الصوتية من جراء الصراخ في كل معركة له. الجندي الذي اختار أن ينعم بقية حياته بالسلام بين الورود والأزهار التي لا شك في أنه كان يجمع منها لحبيبته في كل لقاء بينهما... حبيبته التي فقدها بين الركام الذي خلفته إحدى الغارات الوحشية...

فعلا كان ذات الشارع الذي اعتدت اجتيازه، لكنه بدا غريبا لسبب لا أفهمه، انتابتني وحشة مخيفة كسرها الشيخ الذي في اعتقادي هو جندي، قدم لي مجموعة من الأزهار بابتسامة تبشر بكثير من الفرح والحزن معا. الآن أعتقد أنه كان عرافا أيضا لأنه علم بما حدث يومها، وتنبأ بما جاء بعده وأعيشه الآن. تجاهلت عن بقية الطريق إلى المنزل لأنني صببت جل تركيزي على الأزهار التي قدمها لي الشيخ، أتخاطر معها عن بعض أسرار الحياة التي تتكشف فقط لمن يسأل عنها. حدثتها بصوت روحي إلى أن وجدت نفسي أمام باب منزلنا، هو نفسه الباب وهو نفسه المنزل لكن الأمور لم تبدُ على حالها القديمة، لأنني شعرت حينها باختلاف في كل شيء، حتى في الهواء الذي بدا أكثر انتعاشا وخانقا في نفس الوقت، عندما يختلط مع الشعور بخوف مجهول فيتحول إلى جزيئات خانقة تسد حلقي.

كالمنوم مغناطيسيا وبكيان يعج بالكثير من الأحاسيس غير المفهومة قادتني قدماي إلى غرفتي، وأنا بها لم تتوقف أذناي عن محاولة فرز أنغام تلك الموسيقى الوهمية والغريبة التي بدأ عزفها حال دخول المدعو آدم إلى صفي، أتراه كان يخبئ جهازا يبثها؟ أم أنه كان بذاته آلة موسيقية لا تتوقف الحياة عن العزف من خلالها؟ أنغام تشبه ما تعزفه الرياح على أوتار الأشجار المتعالية التي فيها ما يكفي من الغرور والكبرياء، لكن سرعان ما تهدأ الرياح العاتية لتسلم دورها إلى نسيم رقيق يحنو بعطف على الأشجار ويدغدغ أوراقها فتضحك بصوت الحفيف، والعجيب من كل هذا أنني كنت الوحيدة التي تلقت هته الموسيقى الصادرة عنه!

أم ملاك

يقال إنه لا اختلاف بين الأم وابنتها، كنت أكثر من صادقة في حب والدها ولم أفكر يوما أن أفتح قلبي لرجل آخر بعد رحيله رحمة الله عليه. كذلك هي ابنتي، اختارت أن تغلق قلبها حتى يبقى محجوزا فقط لحبيبها الأول، لكن.. ليتها لم تغلق كل أبوابها لتترك مجالا تتسلل عبره الحياة إليها فتزهر من جديد كاليوم الذي زارفيه الحب عالمها... يوم أتذكره بتفاصيله كيوم مولدها؛ لأنها فعلا ولدت فيه من جديد؛ ازداد بريق عينيها واكتسب صوتها دفئا يبدد برودة إنجلترا برمّتها.

ابنة قلبي وأعرفها، لقد حلت بها اللعنة لا محالة! دخلتُ غرفتها لكنها لم تلحظ وجودي وأنا أراقبها تتمايل بخطوات متثاقلة نحو غرفتها كالمنوم مغناطيسيا، بدا واضحا عليها أنها سارحة الذهن في ذكريات حديثة تشغلها، أو ترسم شيئا بخيالها... وهي في غرفتها، كعادتها بقميص يكبر مقاسها وشعر منسدل، مستلقية ورأسها يتدلى من حافة السرير؛ لأن في اعتقادها هذا يساعدها على الاسترخاء من زحمة التفكير داخل رأسها الصغير، كما كانت تفعل في كل مرة يشغلها موضوع تفكر فيه طويلا...

الفوضى المرتبة تملأ غرفتها، ها هي حمالتها الصدرية ملقاة وسط الغرفة،

وبجانبها مذكراتها التي حارت في ما ستدونه عليها اليوم فألقت بها جانبا بعد تمزيق العديد من الأوراق التي كورتها وغطت بها كل أرضية الغرفة...

كانت سارحة وبدت كأنها مخدرة، لا يتحرك منها سوى ملامح وجهها التي غطتها ابتسامة مع تورد وجنتيها. اعتقدت حينها أنها تخيلت كيف كان سيبدو تقبيل ذاك الذي هي سارحة به، أو أنها فعلا تذكرت قبلته لها التي قد أشعلت بداخلها لهب نار الحب. لقد ارتشفت من كأس الغرام وهي تحاول إخفاء سكرها، لكنها لم تتخلص من الثمالة التي هي فيها، فالمسكر الذي ارتشفت منه لا يزول أثره قطعا.

ملاك

«غرفتي ومخدع أحلامي، ستحمل اليوم مهمة أخرى فعلى جدرانها أن تبتلع سري، وعلى سقفها أن يتحمل سخافة أفكاري التي ترتطم به»...

دونت هته الجملة على مذكرتي لعدد لا يحصى من المرات أملا في الحصول على نص جميل أشرح به ما عشته يومها، وفي كل مرة مزقت الورقة حتى امتلأت بها أرضية الغرفة. رميت دفتر المذكرات جانبا وأسندت ظهري على السرير، جعلت رأسي يتدلى على حافته حتى أسترخي بعد انسكاب الأفكار المشوشة من داخله، هو تصور سخيف لكنه يجدي نفعا في كل مرة... لكن الأفكار أخذت منحى آخر فجعلتني أتخيل أشياء كان من المفترض أن تدون على صفحات رواية رومانسية.

قابلته يومها فقط، لكنني رحت أفكر به دون انقطاع وأتساءل كيف كان سيبدو احتضانه؟ كيف كان سيبدو طعم قبلاته؟ شعرت حينها بشيء من السخافة بينما اعترتني قشعريرة بكامل جسدي مصحوبة بكرة من اللهيب أسفل بطني... أشحت بنظري فوجدت والدتي التي لا علم لي كم قضت من الوقت تشهد ابنتها وهي على حافة الهاوية، تلقي بنفسها في أحضان قصة التهمتها وزجت بها في قبوها المظلم بينما استقبلتها بالورود عند مدخلها!

بعد ذلك اليوم انتظرت يوم الثلاثاء على أحر من الجمر فقط من أجل رؤيته ثانية... فأتى ثلاثاء وراء ثلاثاء... بينما شعرت أنني شرنقة تمر بكل مراحلها، وتزداد نضجا في كل مرة ترقبني عيناه الشغوفتان، ويتمزق غمدي في كل مرة يبوح ببعض كلماته القليلة، وبينما أخذ الجميع يتعلم كنا نوثق حبنا الذي بدأ قبل لقائنا، ولم تكن القدرة لعيوننا على إخفائه حتى أجسادنا لم تكف عن المناداة فيما بينها...

شيئا، فشيئا أصبحنا نلتقي في مواعيد، أحيانا بعد أن يختلق أحدنا في كل مرة عذرا سخيفا يغطي رغبته في رؤية الآخر... اكتشفت شوارع مانشستر مجددا بصحبته، تبادلنا كل أنواع الأحاديث الشيقة والمثيرة. تحدثنا عني كثيرا وعنه قليلا، تحدثنا عن كل شيء بثرثرة غيره هو فقط. فرغم كل شيء لم أتمكن من معرفة غير القليل الذي قاله، أما القصة الكبيرة لم ينطق بها لسانه قط، لكن عينه أخبرتني بكل شيء حزين مر به وإن لم أتمكن من قراءتها بشكل واضح لشدة الغموض الذي كان بها... خرجت كليا من شرنقتي وأصبح لي جناحان أحلق بهما يوم تنازل عن عناده واعترف لي بحبه.

آدم

انتهى أول درس، ولم أتذكر منه سوى ملاك التي رافقني طيفها، يمسك بيدي إلى شقتي الفارغة حتى أتجنب عناء الوسواس القهري في ترتيب الأشياء حسب قواعد هندسية ورياضية. شقتي التي تفوح منها الكآبة المتجسدة على جدرانها الباهتة، وسقفها العابس. كآبة تبحث عن أثاث تختبئ خلفه إذا ما ابتسمت لي الحياة يوما ما، لكنها لا تجد سوى ثلاجة فارغة قد نَسيتْ آخر مرة احتضنت فيها بعضا من الفواكه والخضار، وكل ما كان بداخلها معلبات لأكل جاهز مصيره القمامة.

تستمر كآبتي بالطواف كشبح عالق بين عالم الأحياء والأموات؛ لأنها عجزت عن تصنيفي حيا أم ميتا. تبحث وتستكشف باقي زوايا شقتي فتجد سريرا خشبيا يشبهها؛ لأنه تشرب كل تعاستي وشهد كل زلاتي، بينما تغادرني إحدى الحسناوات وهي تنعتني بغريب الأطوار؛ لأنني أصبحت على غير ما أمسيت عليه معها، فلا يبقى سوى عطرها الثمين عالقا بملاءتي، عطرها الذي تغطي به نتانة ما يفوح منها من تعجرف وشهوة حيوانية...

أبقيت قبضتي ممسكة بيد طيف ملاك، أجوب شقتي الفارغة إلى أن أسندت ظهري على الكرسي الهزاز، الذي يبدو أنه صنع بخشب شجرة عجوز؛ لأنني ما إن ألمسه يتسرب إلي شيء من الحكمة القديمة وهو

يقص علي ما شهدته الشجرة، ولا تكتمل متعة الحديث بيننا عن عالم لا يعيش به سوى المجانين أمثالي، إلا بمجاورة الفونوغراف والكم الهائل من الأسطوانات الموسيقية القديمة المكدسة واحدة فوق الأخرى. اخترت واحدة تشمل مقاطع خيالية لموزارت، أعتقد أنه سرق مؤلفاتها من عالم موازٍ؛ لأنها لا تشبه عالمنا هذا البتة... سافرت مع أنغامها عندما فتحت لي نافذة تطل على ذكريات لي، لكنها قطعا ليست من هته الحياة...

ببطن فارغة، قلب حالم لأول مرة، وعقل منتشٍ بغير مخدر، امتزج كلي بالمعزوفة حتى بدأ النعاس يداعب عينيّ اللتين تعبتا من تتبع حركة الأسطوانة وهي تدور. فنمت لأول مرة كطفل وديع منذ زمن بعيد.

استيقظت صباحا بمزاج لم أعهده؛ لأنه قد وسم هته المرة بشيء من الأمل في التصالح مع الحياة، لأنه قد أصبح لدي شيء انتظره بشوق... انتظرت يوم الثلاثاء حتى أرى ثغرها وهو يبتسم، ووجنتها وهما تتوردان، خطواتها وهي تحنو على الأرضية لخفتها...

فمر ثلاثاء وراء ثلاثاء حتى إنني كنت أشتاق إلى يوم الثلاثاء العجيب، أو هذا ما أقنعت به نفسي؛ لأنني كنت أشتاق إلى ملاكي... تعلمت بعض من الحروف العربية وتمرست على نطق بعض من الكلمات، كما أنني اكتشفت أن ما نقش على قلادتي كان اسمي بالعربية؛ آدم...

كانت محبوبة بين الجميع لا تفارق الابتسامة شفتيها، لقد تعاملت مع

الجميع باحترام ممزوج بتسلط المعلم لطلابه المبتدئين. كنت أراقب كل ما يبدر منها، وأسجل كل كلماتها حتى أعيد تشغيلها بذهني باقي أيام الأسبوع. كانت فعلا كالسحر الخيِّر الذي أصابني فكسر لعنتي، فهيامي بها جعلني بعيدا عن الضجيج داخل رأسي، حتى إنه قد بدأ يتلاشى شيئا فشيئا بيد سحرية سطرت لنا لقاءات متكررة، وجدت نفسي أهرول إليها وأتلهف إلى سماع قصصها، حتى أصبحت هي كتابا بين يدي أقرأ كل كلماته وأتمرغ حبا بين كل سطوره. كتاب لم أرغب أن تكون له نهاية قط.

كنت كعنصر الجاليوم الذي ما إن تلامسه بشرة أحدهم ينصهر على الفور، أما أنا كنت أنصهر خجلا عندما تلامسني براءتها وهي تقص علي بشوق وتلهف طفل تفاصيل رواية فانتازيا يبدو أنها عاشت كل تفصيلها، وهي تتخيل نفسها بطلة القصة، وتتمنى لو يتجسد البطل في واقعها.

صحيح أن هناك من النساء من ألهبت نيران شهوتي، لكنها الأولى التي أشعلت فتيل اللهب المتصل بروحي. ربما كان لطهارتها يد في هذا...

في إحدى لقاءاتنا بينما سها كل منا في شأن ما، وهذا طبع كل لقاءاتنا، أحاديث طويلة ثم انغماس كل منا في تأمل من نوع آخر، لفت انتباهي قط بفرو بني، هو بدوره كان منشغلا بتأمل فراشة مزركشة هربت من إحدى أركان الجنة، كانت قد حطت الرحال بجنبه، فأخذ القط يترقب بكل هدوء هذا الكائن العجيب، ثم قرر أن يدنو منه. هنا خمنت مباشرة في أن غريزة الافتراس عند القط قد استيقظت لحظتها، وبينما انتظرت انقضاض

السنوري على الفراشة إذ حدث ما لم يكن في الحسبان؛ أفردت جناحيها واحتضنت ما أمكنها من وجه القط وهي تشرق على وجهه... أقسم أنني تمكنت من رؤية ابتسامة كشف عنها القط وهو يتململ حبا في جمال الفراشة، عبرعن هذا باستلقائه على ظهره بكل كيانه سامحا لها بمداعبة تفاصيل وجهه...

أشحت بنظري نحو ملاكي التي وجدتها تتطلع إلي بعين لامعة تكشف عن سعادتها وهي معي، تنتظر عودتي إلى الواقع. ابتسمت لي وغدت أجمل من الغيوم الوردية في سماء عشية شاعرية. جعلتني أفكر في كونها هي الفراشة التي بحبها ستتلاشى غريزة الوحشية بداخلي، حينها تكلم كل جزء من كياني: أنا مغرم بك!

الفصل الخامس

«إنها الحالة التي تشعر فيها أنك لا تشعر...

أنك غير موجود...

تسبح، وتسبح في الوجود...»

أوشو

آدم

بعد مرور سنتين على لقاء ملاكي التي تحولت من مدرستي إلى حبيبتي وبعدها زوجتي...

صبيحة الموعد الذي بدأت فيه روحي تزهر:

فعلا لا أعلم كيف حدث كل هذا وليس بوسعي استيعاب أن اليوم هو زفافي... لقد أوشكت على تفويت موعد عقد قراننا... خمنت، كيف سيكون الوضع لو تخليت عن كل شيء الآن؟ لوهلة شعرت بأنني وقعت في فخ حين اتخذت قرارا مجنونا بالزواج والاستقرار الذي لم يكن من خصالي، كما أنني فكرت في حقيقتي، فكرت بماذا سيحدث لو استيقظ الوحش بداخلي مجددا؟ لكنها ملاكي وقبلتي فكان لا بد من الوجهة نحوها...

علمت أنني متأخر عن موعدنا، فأسرعت في إيجاد بدلة تناسب حفلا على الشاطئ، وفي نهاية المطاف اخترت بنطلونا أبيض وقميصا أزرق يتناسب مع فستان عروستي؛ لأنها سبق وأن أخبرتني بأنها لا تريد فستانا أبيض لزفافها وأنها ستكسر القاعدة، ليس لأنها تريد التميز، وإنما بسبب حبها لهذا اللون والراحة التي يبثها في نفسها، فبكل تأكيد سيكون مناسبا ليوم تشتعل فيه الأعصاب من التوتر...

كنت آخر من يصل إلى الشاطئ، حيث رُتب المكان بمجموعة من الكراسي لا تتعدى عشرين كرسيا تقريبا، موجهة عرض الشاطئ وتتقدمها منصة مزينة بمجموعة من الأزهار البيضاء والبنفسجية التي لُفت على الأعمدة الأربعة للمنصة وزينت كل سقفها. كانت الأمواج ناعمة والرمال تتلألأ تحت أشعة الشمس التي تسللت من بين السحب، فالجو لم يكن دافئا كفاية.

كان أحد أيام الربيع الذي مسح الجليد من أعالي الجبال كما فعلت ملاكي بجليد قلبي... لم ألحظ أحدا من الحضور غير عروسي التي بدت كالأميرة في فستانها البسيط، حيث انكشف شيء من ظهرها من بين الخيوط المتقاطعة من المنكبين إلى الخصر. بدا الفستان الذي كان بلون سماء الصحراء يزداد انشراحا حتى انسدل على الأرضية التي غطت بها الرمال... في كل خطوة اقتربتُ فيها منها، لم أشعر أنني أدخل القفص كما يزعمون وكما خيل لي، بل رأيت أن باب أرض جديدة قد فتح أمامي...

بدت الدموع في عينيها اللتين اكتسبتا مزيدا من السحر بعد تزينهما بالكحل وشيء خفيف من ظل العيون الرمادي، أما شفتاها المكتنزتان فشلتا في محاولة إخفاء ابتسامة ممزوجة بالخجل وشيء من لذة الانتصار وانشراح من شيء كان ينغص راحتها، ربما رأت في تأخري عنها بشارة على أنني سأتركها. لكنها كانت متوترة أيضا، فرغم محاولتها إخفاء توترها إلا أن يدها قد فضحتها، فأناملها لم تتوقف عن الارتعاش...

انتهى الاحتفال بشيء من الموسيقى وصور بوضعيات مختلفة، وأشياء أخرى لم أتذكروجودها، غير أننا أصبحنا زوجا وزوجة. ولا أعلم ما الذي فعله المدعوُّون بعدها، لكنني وزوجتي كنا قد لجأنا إلى بيت الشاطئ الخشبي، كان صغيرا وحميميا جدا، وفور دخوله تحاكيك ذاكرته المكانية بشيء من مشاعر الألفة والحنين في نفس الوقت، كأنك قد كنت هناك قبل تلك اللحظة، وأنك عشت ما لا بأس به من المشاعروالأحداث الجياشة به. كان مكانا مناسبا جدا لقضاء ليلة الزفاف ولا ضير في أسبوع آخر...

أما ملاكي قد سادها التوترولم يبدُ عليها أنها تلك الفتاة التي عشت معها تجارب وأحاديث عميقة، وتبادلنا ما لا يحصى من القبل والأحضان، لكن لا بأس بهذا فهته حال كل عروس حسب اعتقادي... حتى أنا بدوري لم أتمكن من إخفاء توتري بعد دخول غرفتنا التي ملأتها الشموع بمختلف الأشكال والأحجام، والتي باحتراقها كانت تملأ الغرفة برائحة الخزامى، وفي كل خطوة اقتربنا بها لبعضنا، لاحظ كل منا الآخروهو يرتجف كورقة شجرة تحت وقع نسائم أيام الخريف. فما كان لنا سوى احتضان بعضنا ليهدأ كل منا الآخر...

ولكنني كنت أمام مواجهة شيء من حقيقتي! فلا أنكر أنني ارتعبت عما سيجول بخاطرها، واحترت فيما سأقوله لها إن سألت هي! لكن رغم هذا لم أمتنع عن إتمام ما كان يستوجبه كل شيء حينها. لقد سبق وأن ظهرت أرواحنا عارية لبعضها، فلم يكن من الصعب أن تُكشف بعض أسرارنا...

لم يكن نور الغرفة كافيا لكشف ما أردت أن أخبئه وكأنه لن يكشف أبدا، لكن لم يكن هناك من مهرب. شعرت بأناملها ترتجف وهي تتحسس جراح روحي التي عَلمتها على جسدي، حينها لم تتفوه ملاكي بشيء سوى شهقات ودموع ذرفتها على حالي. لم تسأل قط كما لم تسأل عن الكثير الذي أخفيه عنها لكنها بطريقة ما كانت تعلم به. احتوتني بروحها وهي تتطلع بعينيّ وتعتذر لي بدل الحياة عما أصابني منها. وبينما احترت في أن أقول شيئا أو أن أصمت، أحاطتني بذراعيها دون أن تقول شيئا هي الأخرى. لكنني خرجت عن صمتي وحدثتها بشيء من قصتي...

بعدها حان وقت أخذ أنفاس عميقة من أجل ممارسة رقصة الحياة. كانت لحظات تملأها القدسية، وصمت مليء بكل الكلمات مع التواجد في أبعاد ما بعد الجسد جعلت الحب ملموسا، رغم خوضي التجربة مسبقا ولعدد لا يحصى من المرات مع نساء أخريات، لكنها كانت مختلفة كل الاختلاف. كانت تجربة مليئة بالعفة والطهارة رغم أنها تحت مسمى الجنس الذي لا يرتبط معناه بأي شيء من العفة والطهارة... لقد كانت تجربة تشبه الصلاة...

ملاك

أهو حلم، أم حقيقة؟!

لم أتمكن من الجزم يومها، لكنني كنت على وشك الاقتناع بأن زواجي لن يتم... انتابني التوتر وأنا بكامل زينتي، محاطة بالمدعوين أنتظر عريسي الذي من المفترض أن ينتظرني هو، لكنه تأخر كثيرا حتى اعتقدت أنه عدل عن قراره فيما يخص زواجنا، وكل ثانية مرت كانت كأنها دهر من السنون، مما جعلني أختنق وأشعر بالغثيان... بدأت أرى الظلمة بين عينيّ، وكل حركة صغيرة زادت من توتري، فوجدتني أنزعج من صوت تلاطم أمواج البحر، ومن صوت الموسيقى التي أطلقت من أجل تهدئة الوضع الحرج لأنني لست الوحيدة التي خمّنت أن العريس قد لا يأتي!

خائفة أنا، قد لا يأتي! خائفة من أن يتراجع، هل أأتمنه؟ لكنني لا أأتمن قراراته التي تصدر في آخر لحظة... بدأت تزور مخيلتي صور عن كيف سيكون مظهري بين الجموع بينما ارتجت بي الأرض وخسفت؟

هل سأتمالك نفسي ولا يغمى علي؟

هل سأشمر عن قدمي التي بدت وكأنها تغوص بي إلى جوف الأرض... ربما

أركض حتى أتعثر بشيء في الطريق، أو حتى تخور قواي وينقطع نفسي، فأهوي على الأرض جثة تترجى من يحفر لها قبرا تختبئ فيه وكل ما تحمله من خيبة وحزن؟

فستان ملطخ بالطين وماسكارا لونت جفوني الغارقة بالدموع الحارقة التي تلبد مقلتيّ، فلا أرى إلا خيالا لمن حولي... كيف سيفكر كل من يصادفني أهرول في الطريق لاهثة أحمل بيدي اليمنى حذائي وباليسرى أرفع فستاني؟ حتما سيردد الكل في سره: «إنها تعيسة الحظ حتى تهرب من زفاف هي مرغمة عليه، أو أنها أكثر تعاسة لأن عريسها قد تخلى عنها»! مهلا.. لن يخمن أحدهم أنني عروس فأنا لا أرتدي الفستان الأبيض... لكن حتما سيعتبرني أحدهم سببا يجعله يكف عن الاعتقاد بأن يومه كان سيئا!

... كلها سيناريوهات بثتها مخاوفي وشكوكي، فلم أجد شيئا أفكر فيه بدل التشاؤم والتخمين في أنه لن يأتي غير اليوم الذي تقدم فيه لخطبتي... كان قبل شهر من يوم الزفاف، كنا قد قضينا سنتين وثلاثة أشهر تقريبا منذ أن دخل أحدنا حياة الآخر دون دعوة رسمية. أغرمت به إلى درجة السكر، وكأنني كنت أعيش في أبعاد غير الأرض، يحملني السحاب وتبتهج معي النجوم، تبتسم معي الشمس وتغني معي الطيور. حتى هو وعلى الرغم من تحفظه بعض الشيء بخصوص مشاعره، إلا أنني لمست حبه الكبير الذي كان يكنه لي.

لكنني في نفس الوقت شعرت دوما بأن هناك شيئا غير مكتمل، شيئا غريبا وغامضا يسبب لي الغثيان وألما في معدتي، وينتقص من بهجتي في كل مرة يوسوس لي بأن هناك شيئا ينم عن الخطر. خلت أنني أعلم عنه كل شيء لكن عينيه كانتا تعكسان شيئا من الغموض وعدم الفهم، كان أشبه بالمحيط؛ مهما اجتهد الغواص فلن يبلغ أعماقه، ولن يكتشف ما بجعبته.

تمت خطبتنا في مقهى، وكان من المفترض أن يحدث ذلك للارتباط الشديد الذي جمع قصتنا بالمقاهي؛ فأغلب لقاءاتنا وأحاديثنا كانت بأحد أركان مقهى ما... اخترنا طاولة متطرفة كالعادة ولا أذكر أنني جلست وسط المقهى يوما سواء وحدي أو مع غيري، لأن الجالس وسط مقهى كالذي يُدفع به إلى منصة قبالة آلاف الأشخاص، فينعقد لسانه ويهرول هربا للاختباء... كانت طاولة جلوسنا الخشبية بجوار حائط زجاجي، إن صح القول، وبهذا كان الشارع المبلل والسماء الملبدة بالسحب الدامعة مكشوفة لنا بالكامل. كانت الرابعة مساء لكنها بدت كالثامنة ليلا بسبب الجو الشتوي، فتزين الشارع بالأضواء على الأرصفة، فبدا الجو أكثر حميمية. وبعد ارتشاف القهوة الدافئة كدفء قلوبنا، وبعد أحاديث مطولة عن كل شيء، انتهى بنا المطاف إلى ذكر قصص الحب الخالدة، فأخبرته عن العربية منها، كعنترة وعبلة، وقيس وليلى، وفاتن حمامة وعمر الشريف، ومحمود درويش وريتا، وعن غادة السمان وغسان كنفاني...

عمّ الصمت بيننا حتى وجدتني تائهة عاشقة لقطرات المطر التي أخذت تلطخ الأرض قطرة تلو الأخرى حتى تبللت كل أرضية الشارع وبدأ انهمارها من جوف السماء شلالات شلالات، لكن بنعومة، حتى لم يعد يتبين نزولها من السماء، غير تلك التي حالفها الحظ لتنزل على مقربة من إنارات الشارع، تتلألأ فور اقترابها منها... وأنا أشاهد كل هذا الجمال انتابني شعور لطيف وتذوقت حس الخلود في تلك اللحظات. وفي نفس الوقت كان آدم يتأملني وكأنه رسام يحفظ أدق التفاصيل حتى يتمكن من الإبداع في رسمته، لكن وبحكم معرفتي به كان يدور بخلده شيء ما، هو متردد في إخباري به...

ساد صمت يخبر عن ولادة شيء ما، لكن ليس ولادة عاصفة! ورغم الأصوات الآتية من داخل وخارج المقهى إلا أن أذنيّ قد صمتا عن كل شيء في انتظار ما ستخرجه شفاهه... حتى استطرد أخيرا بينما بدت ملامح وجهه وديعة كطفل لم تلوث الحياة كيانه بسمومها بعد، وقال:

«أتعتقدين أن زواجنا سينجح وسنكو... !؟»

قبل أن ينهي كلامه، قاطعته بينما شفاهه تتحرك بعدم ثقة تامة بما يقوله، قلت بشيء من المشاعر المختلطة: «عفوا؟!» لأنها كانت أول مرة يحدثني فيها عن الزواج، لكنه استرسل في كلامه بعزم أكثر وثقة يبدو أنه استمدها من معرفته العميقة بحبي له، استرسل في حديثه وتابع: «أتعتقدين أن الجامح الذي أمامك بإمكانه أن يؤسس عائلة ويسكن

إليها؟ هل بإمكانك المجازفة بقبولي زوجا لكِ؟»

تجمدت ملامحي مما جعله يشعر بالحيرة، كما أنه خمن عدم قبولي عرضه. ثم انفجرت فرحا لا يمكن إخفاؤه حتى عن الأعمى، لأن البهجة كانت محملة حتى في صوتي لما صرخت: «بكل تأكيد، أقبل»... لا يمكنني وصف السعادة التي عشتها في تلك اللحظة وعاودت عيشها بينما أتذكر كل هذا.

لكن سرعان ما عاد الحزن ليخيم على قلبي الخائف، والتوتر يجرني من تلك الذكرى إلى واقع أنني عروس من المحتمل أن يشاع عنها أنها تركت يوم زفافها... لكن هذا لم يتحقق، فبعد أن كدت أيأس من قدومه، أقبل عريسي وهو بكامل وسامته، لم أتمكن من رؤية ملامحه بوضوح في بادئ الأمر لأن الدموع التي تحجرت داخل عينَيّ أضعفت مجال رؤيتي... عقدنا قراننا على الورق وما كان لذلك من داعٍ إلا إعلام الآخرين فقط؛ لأن أرواحنا قد اقترنت قبل هذا وشهد على ذلك كل الوجود...

تركنا الشاطئ، تركنا الجميع وتركنا كل العالم خلفنا. لجأنا إلى البيت الخشبي، ثم لجأ كل منا إلى الآخر... أكاد أجزم أنني امتلكت جناحين ليلتها، لأنني ما شعرت بقدمي تطأ الأرض، كانت لحظات تشبه الحلم الذي لم أرغب في الإفاقة منه أبدا... وبقدر ما أتذكر تفاصيل تلك الليلة، بقدر ما تتذكر يداي شكل وملمس تلك الندوب التي وقعت عليها. أقسم أنني شعرت بالألم المخزن فيها، وما إن لمستها يداي على صدره حتى تابعت البحث عنها

على باقي جسده الذي وُشم كله بها غير ساعديه... شعرت بتوتره وخوفه

مما سأقول عنها، وعندما تطلعت إلى عينيه رأيت الألم والعار مغلفين بحزن عميق، وأسئلة لا وجود لأجوبتها! ساد الصمت حولنا وبيننا، حتى أنفاسنا كاد أن ينقطع أثرها. حينها جالت العديد من التكهنات والأسئلة برأسي لكنني لم أجرأ على النطق ببنت شفة. وكل ما تيقنت منه، أنه كان وحيدا وكانت تجربة أليمة ومريرة، فوجدتني أذرف الدموع على ما مر به، أحطته بذراعَيّ بكل ما أوتيت من قوة، حتى اطمأن الجريح الذي بداخله أنه بمأمن وليس له أن يخاف من وجودي معه... ثم قال فجأة بصوت يرتجف كمن يختبئ من شيء يطارده:

«بدأ الأمر عندما كنت بالثانوية، كنت قد لامست أوج مشاعر الضياع، وازداد تضخم الأصوات داخل رأسي، فما كان لي سوى البحث عن أي وسيلة تمكنني من إسكات تلك الأصوات بأي شكل من الأشكال. فكانت الموسيقى حلا مثاليا في بادئ الأمر لكن مفعولها أخذ في التلاشي وأخذت الأصوات تعلو على نغماتها. كدت أن أصاب بالجنون، فاخترت الاختفاء من الحياة، انزويت في ركن على سطح المدرسة وبعد أن دخنت علبة من السجائر، تفقدت الجيب الخفي داخل حقيبة ظهري وأخرجت تلك الشفرة التي اقتنيتها لإنهاء وجودي... باشرت تقطيع شرايين رسغي الأيسر، لكن يدي اليمنى ارتجفت وترددت في الإقدام على ذلك. لكنني كنت في حاجة إلى إخراس تلك الأصوات داخل رأسي لأنها كانت لا تطاق، فجرحت ذراعي وتحت الألم الرهيب تمكنت من تجاهل تلك الأصوات حتى

تلاشت. ففكرت في نفسي بانتصار مميت: لقد نجح الأمر! ثم أصبحت ألجأ إلى إيذاء نفسي هربا من الأفكار الشنيعة داخل رأسي، حتى أصبح إدمانا، وكلما كان الجرح عميقا.. اعلمي أن حجم الأفكار داخل رأسي كان مريعا».

استمعت إلى كل كلمة قالها وقلبي يتمزق عليه، لكنني لم أعلق على شيء ولم أسأل عن شيء. وهو لم يدلِ بأي شيء آخر بعد تلك الليلة...

اختفى الألم والحزن في حضور جمال وسحر تلك الليلة التي اعتقدت أن مفعولها سيدوم إلى الأبد، حيث يمكن لروحك أن تلمس وتكتشف جسدك بأنامل جسد آخر. لقد كان حقا شيئا يشبه الصلاة.. فيه خشوع وتضرع.

الفصل السادس

«أنت تشعر بالوحدة ليس لأنه لا أحد معك، بل لأنك أنت لست معك».

شمس الدين التبريزي

آدم

«كنت خائفا من هذا، ومرتعبا من أنك ستندمين على لقائي حين يأتي هذا اليوم؛ اليوم الذي لوهلة تناسيته واعتقدت أنه لن يكون له وجود، ولكنه طاردني رغم اختبائي واحتمائي منه بك، وها قد وجدني. اليوم الذي أغادرك فيه فيصبح يوم بؤسك وأصبح أنا الرقم ثلاثة عشر مجسدا لتشاؤمك... يقال إنه عند ولادة كل إنسان يظهر له نجم في السماء فيصبح الإنسان تابعا لمسير نجمه في السماء، فإذا اجتمع نجم شخص بنجم شخص آخر في السماء، تقابل الشخصان في الأرض، وعند افتراق النجمين يفترق الشخصان. لقد ابتهجت السماء لمّا التقى نجمانا، تعانقا بنورهما وتشابكا بشيء من لهيهما وتبادلا قبلات حارقة حتى زاد بريقهما، لكنه قد حان موعد افتراقهما لأن أحدهما لم يخطط للاستقرار. أخذ بركات النجم الآخر وتابع سيره في أرجاء الفضاء. لذا علي المغادرة رغم الهدوء الذي احتوى حياتي في مهد هزاز أبقى على الوحش الذي بداخلي نائما طوال السنوات الثلاث التي عشتها معك، جعلني أعتقد بأنني تخلصت من لعنتي. لكنني أعتقد أنها لعنة أبدية وزوال تعويذتها مرهون بانقطاع أنفاسي أنا... عندما بدأ الجحيم يقترب مني مجددا ارتعبت منه لأول مرة، ليس من أجلي فأنا معتاد سوداويته، بل خوفا عليك، أن يدركك ظل نفسي فيحجب

عنك جمال وهدوء الحياة التي تعيشينها... لن أخبئ عنك كم أشعر من الفزع، لأنني مضطرا إلى الهرب، لكن إلى أين؟ فاختبائي المعتاد لأيام لن يجدي نفعا هذه المرة، وكل التصرفات المتهورة لن تكون لائقة بوجودك، لذا قررت الابتعاد عنك... أنا أشبه ذلك البركان في أعماق المحيطات، هو ثائر لا هدوء له، حتى لطف المياه لم يخمد نيرانه، تماما كما أن لطف حبك لم يخمد غضبي وثورتي...»

رسالة دونتها لأتركها لها علّها تغفر لي، لكنني لم أجد الشجاعة الكافية. فمزقتها وقررت الاختفاء من حياتها بشكل نهائي دون أي تفسير، بعد أن قضيت أياما من الاضطراب والابتعاد بحجة العمل، لكن الأمر كان يزداد سوءا، والاختلال قد بدا ملحوظا يوما بعد يوم، وعصبيتي أصبحت تسبق كل أقوالي وتصرفاتي. وأكثر ما كان يزعجني هي الأسئلة التي من قبيل: ما خطبك؟ ما بك؟ لأنها كانت تهزكياني لعدم معرفتي بما يصيبني فعلا. لم تكن لي أجوبة مقنعة بما يكفي، فليس كل من تخلى عنه والداه أصيب بالجنون مثلي، وليس كل من عاش تجارب صعبة اختار المعاناة، فكيف باستطاعتي أن أجيبهم عن أسئلتهم؟ هنا تحديدا كان الضياع في بقعة من بقاع الأرض هو سبيلي الوحيد، والهروب هو الحل الأمثل من أجلي، بل من أجلنا...

لكنني لم أختر الاختفاء بشكل قاطع دون ترك شيء. فأخذت أفكر من جديد في كيفية مواجهة ملاكي، هل أترك لها رسالة أخبرها فيها بأن الحزن

سيدوم إلى الأبد كما فعل فان خوخ مع أخيه ثيو قبل رحيله الأبدي وانتحاره؟ لكنني لم أكن لأجرأ على الانتحار، لأن شبح ذكرى سيجموند فرويد سيطاردني ويلومني، لأنها تحبني وما كان لفان خوخ امرأة في حياته لتحبه حتى يعيش حياة طويلة... احترت إلى أين سأذهب؛ أين الوجهة؟ اليمين أم الشمال؟ فلم يكن لأي اتجاه أن يقودني إلى سلامي، ولم يكن لأي مكان أن يسع تعاستي وغضبي من الحياة... لكن كان من المفترض أن أجرب وأبحث في أماكن أخرى. فاستودعت ملاكي عند الواحد الحافظ الذي لا يضيع عنده شيء، واخترت الرحيل دون قول شيء ودون ترك أي رسالة، فقط اختفيت كانقشاع الضباب دون ترك أثر.

ملاك

لا يمكن إخفاء فيل ضخم وسط غرفة، ولا يمكن حجب الشمس بالغربال. هكذا كانت حقيقة حالته قبل أن يختفي. حاولت أن أفهم ما به دون أن أضغط وألح عليه بالكثير من الأسئلة، لكنه كان يتخذ العمل ذريعة كافية تبرر توتره في المدة الأخيرة، وأنه تحت ضغط كبير في المستشفى بعد استلام مهام زميله الطبيب الغائب الذي لا يمكن تعويض عمله إلا بشخص ند له كآدم.

اتخذ سبيل اختلاق الأعذار مدة من الزمن ليست بالهينة، جعلتني بعقلي الأنثوي أفكر في أشياء أخرى، كوجود امرأة أخرى في حياته، لكن لا يمكن إدانته بتهمة كهذه وهو يقضي جل وقته في العمل أو في المنزل شاردا بوجه سلبت منه كل التعابير، فكان يتحدث عن كل شيء بكلامه القليل ونفس معالم الوجه الباردة، والعيون المخدرة، والشفاه المرهقة.

احترت فيما يمكنني أن أفعل من أجله، فلا نشاطاتنا السابقة ولا إغداقي عليه بالحب كان حلا يجعلني أنتشله من الوضع الذي صار فيه مؤخرا... لكن أخيرا استجاب الله لصلواتي وأهداني ما يمكن أن يلطف الجو العاصف الذي كنا نعيشه... اعتقدت أنني وجدت ما يبهجه، لكنني ربما

تأخرت في الإعلان عنه... انتظرته ليلتها كأسير ينتظر خبر الإفراج عنه، معتقدة أن مفاجأتي له ستكسر القضبان التي حالت بيننا مؤخرا... يا لسخافتي! قلدت ما كنت أشاهده في الأفلام؛ عشية شاعرية، شموع معطرة، وإضاءة خافتة انكسرت أشعة النور المرسلة منها على فستاني الأحمر لتظهر انحناءات جسدي المتلهفة لراحتي يديه الحانيتين أن تطفُوَا عليها... وما كان لأمسيتنا أن تكتمل دون موسيقاه المفضلة، التي باتت بدورها اختياري الأول أيضا... راح الفونوغراف العتيق يدور بأسطوانته الناطقة بأنغام موزارت، فغفوت على وقع سمفونياته الفريدة، التي لم تكن مجرد موسيقى فقط، بل كانت تروي قصصا وتلقي شعرا يصف الحقبة الزمنية التي عاش فيها هذا الموسيقي قبل أن تصف أحواله هو... غفوت وأنا أرى الموسيقى تتحول من ترددات تستهدف أذنَيّ إلى صور لسيدات أنيقات بقبعات تصرخ أنوثة وأجساد ممشوقة تحت وطأة المشد الذي كان من المستحيل أن تستغني عنه إحداهن. كل واحدة منهن تمسك ذراع وسيمها ببذلته الكلاسيكية ووقفته الشامخة، يصفقون لمشهد انتهاء راقصات الباليه من أداءٍ سحر الجميع وهن يرفرفن بينما تغزل بهن الهواء المتحرك بانسياق مع خفتهن المتوازنة والمنسجمة، قبل أن يتغزل بهن جموع الرجال الذين أخفقوا في إخفاء بريق أعينهم وهم يصفقون لهن...

غفوت على هذا كله حتى أنه تسلل إلي المشهد في نومي، فرأيتني أنا ومحبوبي

نعيش حبنا في ذاك الزمن، لكن الحلم كان مريعا لأنني رأيت الأرض تنشق بيننا، بينما أخذ كل شق منها يبتعد عن الآخر ويفصل بيننا، في حين أن قبضة يده استسلمت وارتخت لتترك يدي حائرة وهي تلوح له ليمسك بها، حتى اختفى تماما...

استيقظت وأنا أحمل الكرة الأرضية بأثقالها على صدري، حِمل لم أتخلص منه إلى غاية يومنا هذا... لقد بشرني برحيله في نومي لأستيقظ على رسالته في هاتفي:

«أنا آسف!»

ومذ ذاك اليوم وأنا أتأسف... أتأسف لجسدي لأنني لا أجد طريقة أشرح له بها أن جسده لن يجاوره بعد الآن.

أتأسف لشفاهي لأنها لن تحظى بلقاء مع شفاهه.

أتأسف ليمناي لأنها لن تشتبك بيسراه.

أتأسف للفراغ بين أصابعي، لأنه لن تملأ أنامله فراغ وحشته.

أتأسف لرأسي لأنه لن يغفو على رُحب صدره.

الفصل السابع

«قد يبدو لك أنني حزين، لكنني في الحقيقة تائه وهذا أسوأ إن كنت تعلم».

كافكا

«حقيقة.. كل الطرق تؤدي إلى الحقيقة

كيف هذا؟

كل الطرق!

لا يوجد فعليا شيء يمثل الطريق إلى الحقيقة

الحقيقة فعلا هنا..

إلى أين أنت ذاهب؟»

أديا شانتي

آدم

من لا يؤمن بالسحر فهو أعمى، لأن الوجود كله سحر، ومن لا يبجل الخالق فهو ناكر... ما كان لي إلا أن أسجد بكل وجودي أمام تسبيح المنظر بجماله لمبدعه في ليلة اشتاقت النجوم إلى رؤية جمالها فانصاعت لها السماء فبدت أشد وضوحا، ليتغزل بها البحر بطريقته ملغيا كل رقص أمواجه ليهدأ سطحه فيغدو مرآة أفصحت للنجوم عن بريقها وجمالها، فتحول كل شيء من حولنا إلى جنة جمعت بين السماء والأرض فلم تشبه أي مكان آخر، غير أنها تجسيد للجمال والسحر... كانت فعلا قطعة من الجنة، لذلك ارتمى في حضنها من هربوا إليها وهم يلعنون جحيمهم الذي قدموا منه غير مبالين ببلوغ الوجهة، لأن الهرب وحده كان كافيا كانتصار ولذة للنجاة...

السادسة صباحا بتوقيت غرينتش، في عرض البحر الأبيض المتوسط. بدأ البحر يثور شيئا فشيئا متخليا عن الوداعة التي عشناها بعرضه ليلة كاملة. كان أول رصد لنا في مهمتنا، ومهمتي الأولى في عرض البحر، قارب مطاطي أسود يحمل أجسادا متراصة منهكة، وأرواحا منكسرة مجروحة، بقلوب تخفق بآلام متراكمة من الماضي والخوف من المجهول... اتجه قارب

صغير من باخرتنا ناحيتهم وأول مساعدة حظوا بها كانت سترات النجاة البرتقالية التي ما كانت مجرد قماش ونايلون بل كانت أنفاسا وحياة جديدة لهم. ثم كان لا بد من طمأنة المهاجرين التائهين وسط البحر الهائج ووسط حيرتهم وخوفهم حتى لا يدب الرعب في قلوبهم، خاصة أن أكثرهم لا يجيد السباحة...

كان القارب المطاطي يحمل 74 رجلا و30 امرأة أغلبهم جاؤوا من نيجيريا وغانا والسنغال... على الرغم من محاولتنا تهدئة الأوضاع إلا أن التوتر قد ساد على القارب مع تعالي أسئلتهم عمن نكون نحن وإلى أين سنذهب بهم. لكننا أصررنا على نقلهم وانتشالهم من الغرق. بدأنا بالنساء أولا، نساء تلثمت وجوههن بمزيج من الخوف والسرور، فعلى الرغم من الأجواء المكهربة والمصير المجهول، إلا أنه كان بالإمكان سماع تهافت الحمد والشكر للرب الذي نجاهم واستجاب لصلواتهم قبل أن يصبح البحر مقبرة لأجسادهم الواهنة وأحلامهم البريئة...

بعد نقل الجميع إلى متن سفينتنا بدأت إجراءات تفقد سلامتهم الصحية. لم يكن لي دور كبير أنا و فريقي الطبي لأن لا أضرار جسدية بالغة، وكل المهمة قام بها البحارة التابعون لمنظمتنا. لكن قبل الانتهاء من إجلاء كل ركاب القارب المطاطي إلى سفينتنا قام الفريق بتفتيش المهاجرين حتى يتأكدوا من عدم وجود أي نوع من الأسلحة. فبإمكان خوفهم وجهلهم من نكون أن يشعل فتيل نار الوحشية بداخلهم... أخيرا بعد تهدئتهم ونقاشهم

تمكنا من معرفة نقطة انطلاق القارب، لقد كانت الشواطئ الليبية... لكنهم أبوا أن يفصحوا عن أي شيء قبل أن يعرفوا من نكون، وما هو غرضنا من انتشالهم من البحر، وما سنفعله بهم.

قامت إحدى المتطوعات من الفريق بالتعريف بنا للمهاجرين، ثم بعدها ظهر بعض من الهدوء والطمأنينة على وجوههم، خاصة عندما علموا أننا لسنا منظمة حكومية، ولا ننتمي إلى الشرطة، إنما مهمتنا هي إنسانية، تغيث من يصرخ بالنجدة بأصوات مبحوحة لا يصل صداها إلى أي مكان، فكان من واجبنا ترصد منبع النجدة وأن نقوم بكل مستطاع في سبيل الوحدة الإنسانية.

كان على فريقنا تحضير قائمة بأسماء وأعمار وجنسيات المهاجرين حتى نتمكن من معرفة ميولهم وطباعهم ليسهل تواصلنا معهم! خيم شيء من الصمت المرير على شفاههم واختارت شفاهنا الصمت أيضا احتراما للفسحة التي اختارتها خيالاتهم في تذكر شناعة ما مروا به وتخيل أيام لينة تطبطب على أرواحهم، وتشفي ما أمكنها من الجراح.

لم تُسمع غير التنهيدات وصوت تلاطم الأمواج على جدار السفينة مع طقطقة إحدى قطعها، حتى تجرأ أحدهم بإنجليزيته غير المرتبة لكنها مفهومة إلى حد ما، بوجه كئيب وعينين دامعتين تتطلعان إلى السماء وذراعين نحيلتين وجسد مرتجف. روى لنا أحد المهاجرين السنغاليين عن مغامرته، وعن الستة أشهر من الجحيم التي قضاها في ليبيا من أجل

العمل وتمويل دراسته، لكنه صُدم بواقع مغاير هناك بعد تضخم معاناته يوما بعد يوم بسبب انتشار العصابات الإجرامية... أراد العودة إلى السنغال عن طريق الصحراء لكنه لم يتمكن من ذلك لخطورة الوضع ولم يبقى أمامه غير طريق البحر وخيار الهجرة. اكتفى المهاجر السنغالي بهذا القدر الزهيد من قصته، لكن نظراته كانت تخبئ تفاصيل شنيعة لم تكن له الجرأة الكافية ليتلفظ بها...

أما المهاجرات من النساء، فمعظمهن قد تعرضن للإهانة البشعة واغتصاب وليد أعصاب باردة لمجرم تقوده شهوته. على لسان إحداهن قد انكمش جسدها، واتسعت عيناها وهي تحكي لنا: «لقد كانت تجربة مريرة مخيفة، وكلمة «مرعبة» لا تكفي لوصف شناعتها، منذ أن شققنا البحر حاولت أن أبقي رأسي منحنيا حتى لا أرى الهلع في وجوه الآخرين، استغرقت في الصلاة والرجاء من الرب أن ينجينا مما نحن فيه». توقفت هي عن الكلام فاسترسلت أختها النيجيرية في الكلام عنها، بينما أمسكت بيدها كنوع من المؤازرة لكلتيهما وكأنها تخبرها «لا عليك أنا أيضا مررت بما مررت به قبل أن نجتمع على القارب المطاطي». فحتى هي الأخرى قد مرت بالكثير كما قالت: «لم يبقَ حل آخر غير الهرب، لأننا لم نتمكن من إيجاد عمل يعيلنا، حتى المتعلمون منا. فانهال علينا الفقر بالصفعات المبرحة، أشدها الجوع...» لم تتمكن من إتمام كلامها وقص ما مرت به لأن دموعها ملأت عينيها وسدت حلقها... بعدها تحدث الكثير منهم لكن لم يتشجع أحدهم أو إحداهن لكشف الستار عن كل شيء قد مروا به خاصة

الاغتصاب الذي خلف ندوب العار... بعد اجتماع لم تنتهه قصصه، نال التعب من المهاجرين فناموا كالأطفال من جراء التعب بعد الساعات التي قضوها في البحر.

... لم يمضِ وقت طويل حتى تأهبت السفينة لتلقي خبر وجود زورق آخر كان قريبا ويكاد أن يغرق. هنا جاء دور المستشفى بالباخرة وجاء دوري كطبيب، كان من بين المهاجرين أشخاص مصابون بالتهابات خطيرة مميتة. وبينما تجول شبح الموت يهدد من هم في حالة حرجة ويقرع الطبول على قلوبهم مع عزف موسيقى الخوف على أوتار أعصابهم، تحدث المعجزة ويتجلى الجمال وتتنفس الحياة وسط أنقاض الموت بولادة ملاك من الأم الكاميرونية، بعث بالأمل والبهجة على باخرتنا، ولد وسط البحر واسترق شيئا من قوى زيوس جعلت البحر يهدأ حتى تهدأ معه أنفاس المهاجرين، فتنكشف قصة القارب المطاطي على لسان شاب بوجه شاحب لا يصدق أنه قد نجا فعلا: «ألقينا النكت وتبادلنا أطراف الحديث حتى نزين قبح ما نقدم عليه من انتحار ليؤكده صوت مريب صدر عن المحرك، أخرجه عن صمته لأنه لم يتحمل الحمولة الزائدة على متنه، وما زاد الطين بلة هو تسرب الماء إلى الداخل، فما كان منا سوى التخلص من الحمولة. لكنه لم يصمد رغم هذا فقرر أن يجرنا إلى أعماق البحر، وما كان علينا إلا الاستسلام والصلاة، كل حسب معتقده، بأياد مفتوحة نحو السماء أو مضمومة مع أعين مغلقة، أو مجرد الصمت واستنشاق آخر رشفات من الهواء. لكن الله قدر لنا حياة أخرى لأن عقدنا مع الدنيا لم ينته بعد».

اختلط المهاجرون من كلا المركبين وبدأ شيء من الهمس عن مصيرهم وعمّا سيحل بهم، لكن رغم الأوضاع التي اشتعلت بلهيب التوتر مع الأنفس التي ينقطع شهيقها ويطول زفيرها، إلا أن مساحة الحيرة والخوف سرعان ما تتبدد عند سماع النكت التي كانت تطلقها إحدى الأرواح الفرفوشة لأحد المهاجرين، فتتعالى الضحكات التي بلا ريب تحمل معها صدى من الألم، وتتخللها نغمة تدعو إلى النجاة. كان المهاجر الفرفوش يطلق نكاته بصوت يكاد أن يكون غير مسموع، فتلمع عيون الذكور مع ابتسامة خبيثة، بينما يقهقه أحدهم ويغطي الآخر فمه براحة يده مع بروز عينيه من مخدعهما، أما السيدات فكن يرتدين ملامح الازدراء والاشمئزاز، وهكذا دون فهم مني لنكتته الأخيرة، إلا أنني أيقنت بأنها نكتة بذيئة تساوي رخص الأوضاع التي مروا بها...

ساعات طويلة في عرض البحر معهم، ثم انتهى دورنا وكان علينا تسليم المهاجرين إلى باخرة أخرى، وبدورها ستوصلهم إلى الأراضي الإيطالية.

انتهت مغامرتنا في المتوسط بإنقاذ أرواح اعتدت عليها الحياة، وبإضافة قيمة إلى حياتي التي كدت أن أستغني عنها عندما قررت الهرب وقبل أن أجد سبيلي في المنظمة الإنسانية «أطباء بلا حدود» التي جعلتني أجد نفسي شيئا فشيئا، أولا بإدراك ظلها الذي أخذ ينقشع بنور ما قد جربته في السنوات الخمس الأخيرة؛ حيث لامست روحي لحظات من الوعي الكوني فتح لي أبوابا من الجنة على الأرض؛ بجعله لمفاهيمي عن الحياة ناضجة

تبحث فقط عما يضفي عليها نكهة المعنى الحقيقي للحياة؛ وهو التطور ثم التطور، بغض النظر عن طبيعة مجريات تفاصيل حياة أي بشري، وهكذا انكشفت لي بعض الأسرار، حررتني من قيودي وجنوني...

لكن قبل تواجدي بالمتوسط وقبل نضوجي الفعلي، كانت البداية قبل خمس سنوات:

غرب القارة الإفريقية، العاصمةfree town . واحدة من بين الدول الأربع الأكثر فقرا في العالم، لا يتجاوز متوسط العمر فيها 40 سنة، نسبة وفيات الأمهات في النفاس ووفيات الرضع هي الأكثر في العالم بسبب قلة العناية الطبية... هي معلومات جمعتها عندما اتضحت وجهتي إلى هته البلاد. بلاد لم أسمع بوجودها من قبل، إنها سيراليون أول بلد تطأه قدماي في إفريقيا التي خططت لزيارتها منذ زمن، لكن في ظروف غير الظروف التي كانت سببا في دفعي إليها...

باشرت في بداية خطوات حياة جديدة بعد أن تركت زوجتي وقدمت استقالتي من المستشفى. وسط الشعور بالضياع والرغبة في الهرب من جديد، لكن هروبي تلك المرة لم يكن كسابقاتها من انعزال عن العالم. هروبي حينها كان مغامرة شعرت بأنها ستحدث فارقا في حياتي. تغيير التمست بذوره وهي تزرع حينما دونت طلب انضمامي إلى المنظمة الإنسانية أطباء بلا حدود، التي تجوب بقاع العالم المنكمشة تحت ظل الأمراض والمعاناة ولا يصلها من نور العيش بهناء غير قليل أشعة الأمل في

قدوم مخلص ينجيهم، أو حياة أخرى بعد موتهم يتنعمون في جنتها...

أجبت عن كل الأسئلة على الموقع الإلكتروني المخصص للمنظمة، ودونت رسالة قصيرة عن سبب رغبتي في الانضمام إليهم، لم أكن صادقا فيها كليا، فلم تكن رغبتي الوحيدة هي العمل التطوعي وحسب، إنما كنت أطمع في أن أجدني في إحدى الأماكن التي نقصدها خلال رحلتنا حول العالم...

جاء موعد الرحيل بعد انضمامي أخيرا إلى أطباء بلا حدود. لم يكن متاع ترحالي غير حاسوبي وحقيبة ظهر تحتوي على بعض من الملابس والمستلزمات اليومية. أما قلبي كان يحمل زوجتي وكل ما عشته معها من طيب المعشر... دون وعي تام ومع تسارع في الأحداث اكتشفت أني على متن الطائرة المخصصة لرحلتنا.. أعتقد أن الجميع ردد حينها أدعية وصلوات على أن نصل بالسلامة، أما أنا تمنيت أن يصل إلى ملاك ما يتردد بداخلي:

أنا آسف يا ملاكي، لكن ما كان لي مصارحتك بجانبي المظلم، الذي لم تتعرفي عليه؛ لأنه اختبأ خجلا منك، لكنه اكتسب مناعة ضد خجله وعاد إلى الظاهر غير مبال بمصيرنا، وما كان لي سوى الهرب بعيدا؛ لأنني لم أرد أن تتعرفي إلى حقيقتي البشعة، ولم أرد أن تتذكري عني أشياء ربما تجعلك تنفرين حتى من التواجد بمقربة مني عندما تشتمين الرائحة العفنة للعار، الخوف والغضب تفور مني وقدتصيبك بالاختناق، فتهربين. وما كان لي أن أتحمل خيبة أخرى في تخليك عني، فكان هربي أهون.

استغرقت الرحلة عدة ساعات، لكن رغم التعب الذي نال منا، إلا أننا نقلنا فور وصولنا البلد إلى أكبر مستشفى فيها؛ بحكم أنه كان قريبا من المكان الذي ستكون به إقامتنا. صعقت عندما علمت بأنه الأكبر والأول؛ لأنه يعاني قصورا عظيما، وأول ما بدر بذهني هو كيف سيكون حال باقي مستشفيات البلاد؟

انتهى اليوم الأول من مغامرتي وأنا أشعر بالذهول من الحال هناك، ورحت أؤكد بأنني اخترت الشيء المناسب لمساعدتي على مواجهة الوحش بداخلي؛ لأن ما رأيته وما سمعته قد هدأ عاصفة التفكير الهائج داخل رأسي، فربما ما كنت أعيشه كان هواجس ضعفت أمامها وتركتها تلتهمني، أما ما كانوا يعيشونه هم فهو شيء حقيقي تدمع له العيون وتقشعر له الأبدان، وتلين له حتى أقسى القلوب.

خيم الليل وأنا بالغرفة المخصصة لي ولأحد زملائي؛ حيث اكتفيت بحديث سطحي معه، خلد هو إلى النوم، أما أنا فلم يغمض لي جفن من الأرق الذي حل بي بسبب الأفكار والمشاعر المختلطة بداخلي، المصحوبة بصوت الشخير المدوي الصادر من زميلي...

بدأ اليوم الثاني لي بسيراليون بعد أن غفوت قليلا قبل تسلل خيوط نور الفجر. تركت مكاني واخترت أن أتفسح خارجا أستمتع بالهواء الباكر العليل، لكن وعلى غير عادتي جلست على الأرض بوضعية التأمل، ثم دخلت في حالة مريحة لانتظام التنفس، وغير مريحة بذات الوقت بسبب

الأفكار التي رأيتها لأول مرة تطوف حولي، فأدركت أنها منفصلة عني وربما في إمكاني الانعزال عنها. وبالفعل بعد عادة التأمل اليومي تغير في الكثير...

انتهيت من تأملي الذي بشكل عجيب تمكنت من الالتزام به لمدة ساعة تقريبا، ثم توجهت إلى المستشفى مع فريقي بعد أن جهزت نفسي، وكانت أول مهمة لنا إسعاف تلك المولودة الصغيرة، التي كانت ضحية للعادات؛ حيث وجدت مرمية بمكب النفايات عارية تماما لا يغطيها سوى قشة بالية متشربة بالدماء وباقي السوائل من الأغشية التي ترافق كل مولود جديد. لحسن حظها التقطتها امرأة وأحضرتها إلى المستشفى. اندهشت عندما أمعنت في رد فعل المرأة التي اتسمت بالبرود وعينين منطفئتين لا تعبران عن أي غضب أو شفقة ناحية الصغيرة، وكأن الحدث شيء عادي تماما. وبالفعل كان الأمر عاديا هناك، وكل القصة أن الطفلة قد أذنبت بقدومها إلى العالم لتختبر الحياة بجسد مختلف عن المألوف. فكانت خطيئة الرضيعة أنها ولدت بمرض الاستسقاء الدماغي، الذي جعل جمجمتها أكبر حجما، وكان عملنا يقتضي استئصال الجزء الخارجي منها، وتمت العملية بنجاح. لكن تفكيري ظل متواصلا بشيء من الألم عند تخيلي لموقف الأطفال الذين يولدون مثلها، ولم يكن لهم الحظ في مصادفة امرأة تهرع بهم إلى المستشفى حتى يكتب لهم عمر جديد ولد من بين القمامة في مكب النفايات أو سرق من بين مخالب كلاب ضالة قد يجعلها الجوع تلتهم قطعة من اللحم تحمل روحا بريئة. لقد أرهبتني حقيقة أن أمثال هته

الحالة يتخلصون منهم فور ولادتهم؛ لأنهم يرون في المرضى المولودين بالاستسقاء الدماغي شياطين قادمين من العالم الخفي، فتسجل الحدث في ذاكرتي كنقش للكتابات والرموز التي دونها القدماء والتي لا تزول تحت أي تغير قد يمسها...

فخلال السنوات المنقضية جبت العديد من الدول الإفريقية، وما كان لي سوى الاحتفاظ بشيء من كل واحدة. حدث سيحفر في قلبي إلى أبد الزمن، فكان المشرق منها الابتسامة المرتسمة على الوجوه المتعبة، والسعادة المطلقة لأطفال يصنعون من الرثاء موسيقى ومن ندب الحياة القاسية إيقاعا يرقصون عليه، ومن القمامة ألعابا تفرح بها قلوبهم الندية. أما المحزن منها فهو الألم الذي قطن عيون تلك الأرواح البريئة، فلا يمكنني أن أنسى أو أتناسى صورة تلك الأم المنهكة عارية الصدر، الذي لم يعد يبدو مثيرا لأي ذكر بعد أن جف تماما، ولا قطرة حليب به تسكت أنين طفلها الذي يتنفس ببطء وكأن الحياة تودعه وهو متكور في كيس لحمل البطاطا، ملفوف بإحكام على رأس والدته ليتدلى على ظهرها وهي تقوم بقطف زهور القطن التي سيتنعم بملمسها من هو في الرفاهية، بينما تكابد هي شقاء يوم من أجل أجر ضئيل قد يطعمها في آخر اليوم هي وصغيرها...

وفي بقعة أخرى من الأراضي الإفريقية، أسمع لأول مرة بظاهرة النيلو المناخية؛ التي جعلت الأراضي عقيما تصرخ بأصوات من يسكنها بسبب الجفاف الذي يغذي المجاعة، التي شفطت اللحم من على عظامهم،

فبرزت العظام مكشرة أنيابها غضبا في وجه البشرية التي يبدو وكأنها لا تحرك ساكنا أمام بشاعة هذا الإجرام. فما هم بجثث قتيلة يباح دفنها، وما هم بأجساد متعافية يمكن إجلاؤها. ولشدة التناقض الذي لم أفهمه قطعا كانت قطرات من المياه كفيلة بإحياء الأرض حتى تتكرم على أناسها بشيء من المحاصيل تسد أفواه المجاعة فيخف أنين الأرواح البريئة، ولكن في نفس الوقت بإحدى البقاع الإفريقية، يعد ما بعد موسم الأمطار كابوسا يترصد الأرواح. فكل بركة يخلفها هطول الأمطار تعتبر بمثابة منبع للموت تتغذى منه بعوضة الأنوفيلا التي تحصد أنفاس البشر بوخزهم بطفيلي الملاريا أكثر مما تفعل الحروب بأسلحتها...

وفي الوقت نفسه بينما يموت البعض من الجوع المزمن أو بالأمراض الفتاكة، فهناك من اختار أن ينهي حياته بيده ليس لأنه يمر بموجة من الاكتئاب؛ لأنهم لا يعترفون بهذا مطلقا، ولكن هي تلك المرأة الفولاذية التي قررت أن تضع حدا لحياتها بعد أن جابهت كل شيء من أجل أن تجعل الحياة حولها تقبل بزيارة الفرح والبهجة، فكانت تزهر معها وهي مراهقة تبحث عن تسريحة شعر من الضفائر، قد تثير أحد الشباب من قريتها وهي تمر بالمكان الذي ينتظرها فيه كل يوم بعد عودتها من العمل في إحدى المزارع برفقة فتيات ترقص بداخلهن الأنوثة، فتدفع بهن إلى أن يصبحن أمهات. لكن إحداهن تعيش قصة قد عاشتها كثيرات قبلها؛ تبدأ بولادة متعسرة في إحدى المستشفيات المتداعية، فتخرج منه بطفل في غالب الأحيان ميت، فتحمل هم الحزن عليه وهم بداية صراعها مع مرض

الناسور البولي الذي يجعل من حياتها جحيما فيدفع بها العار إلى الانتحار، ليس رغبة في التخلي عن الحياة وإنما رغبة في التخلص من شيء أفسد حياتها، فتلجأ إلى تقييد جسدها بحبل مربوط بالحجارة ثم إلقاء نفسها في مياه المحيط، ولا أحد يعلم ما تلته نفسها وهي تلفظ آخر أنفاسها المختلطة بالمياه المالحة للمحيط. لكنني أعتقد أنها همست بلعنات ستستهدف العالم إلى آخره، وربما تكون قد رأت أطلانطس في قعر المحيط فابتسمت ونسيت الألم الذي جرها إلى ظلمات القاع، فودعت الحياة بشيء لطيف قد يخفف من الضريبة التي يجب أن تدفعها البشرية فدية لروحها.

كم كان ألمي الشخصي تافها أمام ألم تعانيه أمة لا يسمع أنينها إلا قلة من أمثال فريق المنظمة الإنسانية أطباء بلا حدود...

الفصل الثامن

«لا تزهر الأرض إلا إن بكى المطر»

الرومي

ملاك

كانت نافذتي محقة فيما ظلت تخبر به جدران غرفتي، فالأمل في العودة إلى الحياة متجذر في داخلي، وليس من السهل قطع شجرة فقط لأن أوراقها سقطت، ولحاءها جف فذبلت كل أغصانها وتوقفت عن النمو؛ لأن جذورها لم تتوقف البتة عن الانتشار بالعمق تبحث عن سبيل آخر للحياة. أخذت جذوري تحفر بهدوء في أعماق الحياة؛ لهذا احتجت عزلة دامت طويلا، عزلة لم تكن فقط بسبب الألم الذي سببه لي رحيل آدم، بل أيضا لأنني كنت بحاجة إلى إعادة النظر في كل شيء في حياتي. وكان لا بد لي من زيارة أماكن في أعماق نفسي لم أقصدها من قبل، وبهذا فقط أيقنت أن هناك شيئا أكبر مما نعيشه، وربما كان هو الدافع الخفي الذي جعل زوجي يختفي؛ لأنني الآن أشعر برغبة داخلي في البحث عن هذا الشيء الخفي، رغبة بدأت ترسل فروعها إلى خارجي، وهذا ما جعلني أفهم أشياء لم أتمكن من فهمها بوضوح من قبل، تماما كنظرية الفراشة وترابط كل شيء في الوجود...

سمعت لأول مرة عن نظرية الفراشة في يوم قد بدأ بتساؤلي وتعجبي:

أجدها لعبة غريبة وليست مغرية قطعا، وأتعجب كيف يدمنها بعض من

الناس. صراحة أنا لا أفهم قواعدها وأهدافها لكن كل ما أعرفه هو مداعبة لاعبيها للكرة وسط فراش هائل من العشب والأرض غير المستوية، وأعتقد أن الفائز هو الذي يتمكن من إدخال الكرة في تلك الحفرة الصغيرة... لكن من السخرية فعلا رغم عدم حبي للعبة إلا أن زيارة ملعب الغولف أصبحت شيئا ضروريا في أثناء زيارة المتنزه. ربما كل هذا لأنني شديدة التعود والإدمان... لقد أدمنت المتنزه كله مذ أن كنت طفلة صغيرة أتلهف إلى نهاية الأسبوع فقط من أجل زيارة ما كنت أسميه بالحديقة السحرية... وأصبحت سحرية ومحببة إلي بشكل أكبر منذ ذاك اليوم الذي قررت أن أشاطر بهجتي بها مع أميري... لحسن حظي يومها أنه كان متفرغا من كل مواعيده بالمستشفى... أمسكت بيده كطفلة صغيرة تنط من مكان إلى آخر، أريته كل الأماكن التي أحبها داخل المتنزه، وأخذته في رحلة جميلة على متن قارب التجديف بالبحيرة اللطيفة التي لا يكتمل جمال المتنزه إلا بوجودها، وتعجبت كثيرا كيف لم يقصده قبلا وهو يقطن بمانشستر!

تبادلنا أطراف الحديث حول كل ما شاهدناه حولنا من نباتات مميزة وأزهار تفتحت بكل الأشكال والألوان تسبح بطريقتها لخالقها. وفي كل مرة ينسحب فيها الكلام بيننا يترك مساحة للتحديق في منظر لطيف لأحد الأطفال يلاعب الحيوانات الظريفة من طيور، أرانب، وغيرها من الحيوانات الأليفة التي دُربت على استقبال الزوار والتفاعل معهم لتثبت لنا أن الإنسان لا يتربع على عرش المخلوقات على الأرض كما يدعي...

من أشد الذكريات التي رسخت بذاكرتي من ذاك اليوم... كنت ممسكة بذراعه ملتصقة به بحجة البرد، بينما أوشكنا على الانتهاء من التجول في منتزه Heaton park التابع لمدينة مانشستر. لا أعلم لماذا تبادر إلى ذهني ذلك السؤال السخيف؟ ثم ألقيت به على مسامعه: آدم، ما الذي ترغب أن تكون عليه من غير كونك أنت آدم؟

أسفرت عيناه اللتان اتسعتا حينها على أنه تعجب لسؤالي، ثم قطب حاجبيه مع هز رأسه بدليل أنه لم يفهم ما أرمي إليه. ابتسمت له حتى زال الغموض عن وجهه وتابعت التحديق في عينيه أحاول اكتشاف ما تستران به عني، وككل مرة أعجز عن فك شيفراتها. كسرت الصمت الذي استمر بيننا لوهلة من الزمن بقولي: «أنا أحيانا أرغب بأن أكون فراشة بدل كوني ملاك»... ابتسم مطولا ثم قال: أعلم بأنك طفلة لكن لم أعلم بأن تفكيرك لا يزال طفوليا، يبدو أنك متعلقة بقصص ديزني كثيرا... نظرت إليه ووجهي يحمل تعابير الاستياء الطفولي «كما كان يسميها «، وهتفت بنبرة دلال: لا تستهزئ بي، بدل هذا كان عليك أن تسألني عن السبب وراء رغبتي هته... أحكم شد عضلات ذراعه اليمنى حول خصري بينما داعبت يده اليسرى خصلات الشعر المتطايرة على وجهي وقال: حسنا يا صغيرتي أنا كلي آذان مصغية لك، أخبريني ما الذي يميز الفراشة، ها؟

أجبته بنبرة متلهفة حتى أكشف له عما يدور بخلدي: كل شيء بخصوصها يغريني؛ فالفراشة كائن مسالم ورقيق جدا، اختارت الربيع وأزهاره كي

يتبنوا فترة حياتها القصيرة. وللفراشة تعريف آخر للجمال؛ فهي جمعت بين ما نعتبره قبيحا بكونها أولا يرقة مقززة الشكل، ثم تحولت إلى كائن جميل بأجنحته الملونة. الفراشة أضفت كلمة الجمال إلى ما يتنافى معه في مفهومنا، فنحن لا نعتبر الحشرات جميلة، لكن الجميع يتفق على جمال الفراشة.

تابع نقاشنا بقوله: لقد أعجبت بنظرتك عن الفراشة، لكن يا ملاكي يبدو أنك تجهلين أهم شيء عنها، حسنا سأطلعك على أهم شيئين عن الفراش، وأعتقد بأن فكرك عنها سيتغير بعد هذا. ربما يبدو كل الفراش مسالما ورقيقا جدا لكن هناك نوع منه يلقب بـ: carnivore بمعنى أنه يتغذى على اللحوم، ولا تستغربي إن صادفت حشدا من الفراشات الجميلة الناعمة تغطي سطح إحدى جثث الحيوانات النافقة، تلتهم لحمها المتعفن...

قاطعت حديثه بفاه متعجب وكأنني لم أصدقه. لكنه دون أن يعلق على ملامحي التي اعترضت تصريحه حول الفراشة، تابع بدوره حديثه الذي لم يبدُ أنه قد انتهى بعد: أنت تعتقدين أن الفراشة تعيش حياتها القصيرة بكل هدوء وسلام، لكن لا تستغربي قط إن صادفت يوما خبرا بعنوان «لقد دُمرت هته المدينة بسبب فراشة «. نعم لا تستغربي لأن هناك ما يسمى بنظرية الفوضى Butterfly effect التي تنص على أن أصغر الأشياء وأدقها بإمكانها أن تحدث تغييرات هائلة. وعلوم الأرصاد الجوية

هي أول من تبنت هته النظرية، فرفرفة جناح فراشة في بلد ما بإمكانها إحداث إعصار هائج ودمار كبير في بلد آخر. ونحن جميعا نعيش هته النظرية يوميا؛ فكل شيء غير متوقع أو مفاجئ يطرأ على حياة أحدنا وحتى على العالم أجمع هو نتيجة لنظرية تأثير الفراشة التي تقول بأن أمورا صغيرة ودقيقة جدا قد تحدث شيئا كبيرا جدا يفوق تصوراتنا، وما يجب أن ننتبه له هو أن التأثير في أغلب الأحيان لا يكون مباشرا وإنما يظهر بعد انقضاء سنوات... إليك مثالا آخر عن نظرية تأثير الفراشة؛ لم يعتقد أحد أن كسر عزيمة شاب وتدمير حلمه بقرار جاء فقط بكلمة «لا» كاد أن يدمر العالم بسببه. أدولف هتلر المتسبب في الحرب العالمية الثانية والمتسبب بالدمار في العالم آنذاك؛ من جراء تجنيده في الصفوف الألمانية بعد رفضه من قبل كلية الفنون الجميلة بفيينا لمرتين على التوالي. كل ما أراده هو أن يصبح رساما وتلك الكلمة الصغيرة «لا» كانت سببا في تحوله إلى طاغية، فبدل التلوين على أوراق الرسم، لون الكرة الأرضية بدماء البشر. لهذا يا عزيزتي تبنيت نظرية تأثير الفراشة فأنا لا أستهزئ بأي شيء مهما صغر، ولا أقلل من شأن أي تصرف أقدم عليه، أو أي قرار بسيط أتخذه...

لقد فوجئت بالفعل من المعلومات التي أخبرني بها آدم يومها ولكنني لم أطبق الأمر على حياتي، أما اليوم فأنا أتساءل عن ذلك الشيء البسيط الذي لم أنتبه إليه لكنه كان السبب في الفوضى التي أعيشها.

الآن أفكر في تبني نظرية تأثير الفراشة بأصغر التغييرات التي سأحدثها على

يومي، علي أنجو مما أنا فيه، وعسى أن يكون قراري البسيط في الخروج من المنزل اليوم سببا لمصادفة النجاة وانتشال روحي من الكآبة التي عشتها لزمن طويل...

أم ملاك

«عيب علي أن أشعر بالضعف والوهن.. عيب علي الاستسلام للرياح العاتية المتسربة من ثغرات الحياة.. عيب علي احتضان الحزن والكآبة وأنا تملأني روح من الله تعالى. كيف لي أن أغفل عني كل هته السنوات؟ كيف لي أن أسمي نفسي مؤمنة وأنا تخليت عني في بداية طريقي وفي أول ظرف امتحنتني به الحياة؟»

وجدتها مدونة على إحدى الأوراق التي هربت من غرفة ملاك إلى الرواق بفعل التيارات الهوائية المتسربة من النافذة.

عندما قرأتها تيقنت أن هناك تغييرا قد بدأ يطرأ على ابنتي وحينها استبشرت خيرا، أعتقد أن الوقت قد حان لكي تزهر ابنتي من جديد. أعلم أنها قوية ولا يمكنني أن ألومها على وعكتها وانهيارها الذي دام لسنوات، ولم يكن بوسعي مبارزة عنادها، كما أنه كان من المفترض لها أن تعيش تجربتها بحذافيرها، وتتعلم دروسها وتدون ملاحظاتها حول الحياة. فعلى الرغم من كل شيء وكل التطورات والأحداث والاختلافات والاحتمالات فحياة كل منا ما هي إلا تجربة أرضية اختارتها أرواحنا لكي تساعدها على الارتقاء... إنه اختيارك يا ابنتي لا أعلم المغزى من القصة، لكنني أحترم ما تمرين به وما كان لي سوى أن أدعو الرحمن من أجلك وأن أكون لك سندا... لم أعاتبك قط ولم أقسو عليك البتة

ملاك

في الخمسينيات من القرن الماضي، أستاذ جامعة اسمهCurt Richeter كان يقوم بعمل تجارب نفسية على الفئران. واحدة من أهم تجاربه كانت تنص على إحضار مجموعة من الفئران، ووضع كل منها في إناء زجاجي كبير ممتلئ إلى منتصفه بالماء. الإناء كبير جدا حتى لا يتمكن الفأر من التسلق بمخالبه والخروج منه. كان ريشتر يحسب الوقت الذي يقاوم فيه كل فأر في السباحة ومحاولة الخروج من الإناء قبل أن يستسلم للغرق. طبعا كان هناك اختلاف بين فأر وآخر لكن في المتوسط كان الفأر يحاول لمدة 15دقيقة ثم يستسلم للغرق.

قام ريشتر بإعادة التجربة ولكن بإضافة تغيير بسيط، كان عندما يرى الفأر يصارع في لحظاته الأخيرة مع الاستسلام يخرجه ويجففه ويتركه يستريح لبعض الوقت، ثم يعيده إلى الإناء الزجاجي الكبير، ويستمر بحساب متوسط مقاومة الفئران للاستسلام والغرق. والعجيب في الأمر أن متوسط الوقت الذي حاربت فيه الفئران قد وصل إلى 60 ساعة هته المرة، وهناك فأر استمر لمدة81 ساعة...

تحليل التجربة هي أن الفئران في التجربة الأولى فقدت الأمل بسرعة بعد

أن تأكدت بأنه لا سبيل للخروج، أما في المرة الثانية فكان لدى الفئران خبرة بأن هناك أملا في الخروج من الماء، وأنه في أي لحظة قد تمتد لهم يد العون، لذا انتظروا أكثر تحسن الظروف، وما كانت تجربة ريشتر إلا دليلا على أهمية الأمل...

نعم إنه الأمل الذي جعلني أحيا إلى الآن، وفي اعتقادي كان أمل عودته هو ما يعطيني القوة على الاستمرار لكنني كنت مخطئة. إنه الأمل الذي كان يلقيه خالقي في جوفي في كل مرة ينقذني من انتحار غير مقصود؛ كالامتناع عن الأكل لأيام تعبيرا عن عدم الرغبة في الحياة... إنها الرعاية الإلهية التي أبقتني... إنه إيماني الذي يتمسك بمبدأ أن وجودي ليس هباء، ما دفع بي هته المرة إلى نفض غبار البؤس والتحرك في سبيل تحقيق معجزتي، فأنا مؤمنة تماما بأن وجود كل فرد في الحياة هو معجزة بحد ذاته...

يمكنني تعريف المفاجأة والاستغراب بملامح وجه أمي صباح هذا اليوم حينما أقبلت عليها وأنا أكتسي الملابس التي اعتدت الخروج بها. ابتسمت في وجهها، قبلت جبينها ثم طلبت منها أن تطلعني على قائمة الأشياء التي كانت ستخرج من أجل اقتنائها، وأخبرتها أنني سأفعل ذلك بالنيابة عنها اليوم. لم تقل شيئا لكن تعابير وجهها ودهشتها المختلطة بالسعادة تحدثت، وكأنها تقول: أخيرا استجاب الله لصلواتي. وكل ما فعلته هو أنها أخرجت من حقيبتها قائمة مكتوبة للمقتنيات التي كانت ستشتريها، وضعتها بيدي ثم أخذت تراقبني حتى خرجت من باب المنزل. وأعتقد بيقين

أنها توجهت مسرعة نحو النافذة لتتابع مراقبتي وأنا أخطو خارج المنزل بعد انقضاء كل هذا الوقت، ففي كل مرة كنت أجد بها نفسي خارج المنزل كانت وجهتي دون شك المستشفى، بعد تعرضي لانهيار شديد فأستعيد وعيي وأنا موصولة بأنابيب تضخ بسائل مغذٍ يصعقني ببرودته وهو يمتزج بما تبقى من الدماء داخل وريدي، ورغم هذا لم أكن لأتمكن من فتح عينيّ أو تحريك شيء مني. كأنني جثة هامدة لولا الدموع المتلألئة التي تخرج من شق عينيّ المغمضتين فتبتلعهما أذناي، ولولا تأكيد الأطباء على أن الحياة لا زالت تدب في أوصالي، لما صدقت والدتي أنني أتنفس بينما أسمع قلبها وهو يصلي من أجلي...

أغلقت باب المنزل دون الالتفات إلى الوراء، وفي نيتي غلق جميع ملفات الماضي وعدم الالتفات... ابتعدت عن منزلي وكل خطوة خطوتها أبعدتني عن آلامي... أخيرا صار بوسعي استنشاق الهواء بنكهة الحياة بعد أن كان ملوثا بنكهة الكآبة والألم. لم يشغل ذهني سوى الخطوة التي سأخطوها والحياة التي سأحياها... لكن يبدو أن الكثير قد تغير في أثناء غيبوبتي وعزلتي بغرفتي، فالشارع يبدو مختلفا، وبعض الأزياء جديدة. حتى الأشخاص يبدون في عجلة من أمرهم وكأن الزمن قد تسارع عما كان عليه سابقا... كلها أشياء أشعرتني بالغثيان وبثت في داخلي رغبة في الانسحاب والعودة إلى كهفي. لكن لا، كان علي المحاولة، علي أن أسرع كي أتدارك ما فاتني.

وفي وسط الشارع بينما تصارعت الأفكار داخل رأسي على أن أتابع مشواري

أو أن أعود أدراجي وأختفي مجددا داخل غرفتي، شيءٌ غير الأزياء الجديدة بالشارع جذب انتباهي بشدة، شاشة الإعلانات الضخمة على إحدى المباني الشاهقة وهي تعرض «Move on»

لا أعلم لماذا اعتبرتها رسالة لي والتفاتتي للشاشة وأنا أتخبط بين أفكاري لتقابل عيناي هته الجملة، لم يكن بمحض الصدفة، فأنا لم أعد أؤمن بما يسمى صدفة...«Move on» تحركي... ربما هي رسالتي للتحرر من السجن الذي فرضته علي رسالة آدم الأخيرة «am sorry»

بخطى متثاقلة وعين شاردة تابعت مسيري، بعد أن قررت مواجهة مصيري كيفما كان ويكفيني اختباء. وكل ما شغل تفكيري أسئلة كان من المفترض أن أطرحها على نفسي في وقت أبكر:

هل استحق الأمر العناء كل هته السنوات؟

هل استحق الأمر انعزالي ومرضي؟

هل استحق رفضي لطفلي ونفوري منه ومن نفسي؟

آه، صحيح، لدي طفل.. طفلي، يا لغرابة الكلمة على لساني ومسمعي؛ لأنني لم أتفوه بها من قبل... يقولون إن الأم فقط من تشعر بجنينها، لكن هناك ما يفعله الجنين أيضا ولا تعلمه الأم الحامل به، فليست الحركة والعنف واليدان والقدمان الصغيرتان اللتان تركلان جسد الأم كل ما

يفعله هذا الصغير، وإنما هناك أشياء غريبة تحدث داخل الرحم لكن الأم لا تشعر بها.

فحينما تنام الحامل في الليل يبقى الجنين مستيقظا يحرسها، ثم يبدأ بالتفكير فور بلوغه الشهر السابع، ولا ريب أن جل تفكيره حول شكل أمه التي عشق صوتها. لكن جنيني كان تفكيره حول إيجاد حل لأمه البائسة، وإيجاد سبيل إلى مسح دموعها التي كان يتلصص على صوت وقعها على وسادتي. ويقال أيضا إن الجنين يسعد لسعادة والدته، فلا يكف عن الابتسام مقاسما بهجة أمه. لكن جنيني قد تجرع أحزاني وذرف دموعا زادت من امتداد بطني التي راقبتها يوما بعد يوم وهي تنتفخ إلى أن صارت بالونا تملأه تشققات الجلد من تمزق الكولاجان...

يقولون بأن الجنين يرى أحلاما، لكن جنيني لم يحظَ بأحلام طيبة غير ذاك الحلم الذي شاركني به في عودة والده ليقبل بطني، ويرسل له حبا ينمو به له جناحان تفردان فور ولادته... يقولون أن الجنين يبدأ بتقليد والدته وهي تتنفس عندما تكتمل رئتاه في النمو، لكن جنيني كاد أن يختنق بتقليده الأعمى لأنفاسي المتقطعة...

رغم كل شيء، أنا لم أفكر في التخلص منه، حتى هو بقي متشبثا بأحشائي رغم تدهور حالتي الصحية بشكل حاد في أثناء حملي به. ربما ليعلمني كيف يجب أن تكون النجاة...

وكأنني كنت منومة مغناطيسيا خلال السنوات التي مضت.

يا إلهي الآن فقط أدرك كم كنت ضعيفة، فأنا لم أتحمل مسؤولية ما حدث معي، أنا لم أتحمل مسؤولية طفلي، بل أقحمت والدتي في كم هائل من الحزن والتعب. ربما اعتقادي الدائم بأنني لا أقدر ولا يمكنني العيش دون حبيبي هو الذي جعلني أختلق كل تلك الدراما اللعينة عندما هجرني، تظاهرت نفسي بالموت فقط كي لا تهدم فرضيتي بكوني لا أقدر على أن أعيش دونه.

لكن ها أنا اليوم حية أرزق رغم كل شيء، والحياة مستمرة رغم عنادي وسذاجتي اللذين جعلاني فقط أضيع ما يزيد عن خمس سنوات من عمري في النحيب... بالفعل أحببته أكثر من كل شيء، ولا أنكر حقيقة أن أوصال حبه لا تزال متجذرة في أعماقي... لكن لم يكن حقًّا علي أن أدفن نفسي وأنا حية، لقد أذنبت حين اعتزلت العالم وتوقفت عن النمو. لم يكن من المفترض أن يدوم عزائي كل هذا الوقت. أنا لا ألوم أحدا عما حصل لي حتى إنني لا ألوم زوجي لأنه تركني. أنا فقط ألوم ضعفي؛ لأنه هو سبب الدراما التي اختلقتها واحتميت بها بعيدا عن مسؤولياتي... يا إلهي ما ذنب طفلي حتى يعاقب بالحرمان من والديه أو أمه التي هي معه تحت سقف واحد لكنها تبعده بعد النجوم؟ طفلي الذي أدرت عنه وجهي مباشرة بعد وضعي له، أنا فعلا لا أعرف ابني، وكل ما أملكه في مخيلتي عنه هو صدى صوته المتردد بين أركان المنزل، وخيال وجهه الذي يدركه فقط شق بصري...

اقتنيت كل ما دونته أمي في الورقة بعناية؛ لعلمي بحرصها الشديد في اختيار لوازم المطبخ من خضر، بقوليات وحليب و... عندما وصلت إلى آخر ما دونته أمي انقبض قلبي وأنا أهمس بتلك الجملة «يجب أن لا أنسى شكلاطة حبيبي وملاكي الصغير»... إنها نفس الجملة التي كانت تدونها أمي مع لوازم المنزل «يجب أن لا أنسى شكلاطة حبيبتي وملاكي»... هل يا ترى لطفلي نفس طباعي؟ أيحمل شيئا من نفسي؟

خرجت من السوبر ماركت وداخلي كله إعصار من المشاعر المختلطة، لكنني أيقنت حينها بأن أيام حزني وغربتي داخل منزلي قد انتهت؛ فأنا لن أدخل البيت كما خرجت منه، وهذا كله بسبب قرار اتخذته ومن القرارات يبدأ كل شيء.

أم ملاك

هل أنا أحلم أم أن هذا دعائي الذي لطالما رتله قلبي وترجت به الله روح الأمومة بداخلي من أجل ابنتي؟ الحمد لله لقد ابتسمت وتكلمت أخيرا... ليس للكلمات من أي لغة في العالم أن تصف مقدار سعادتي وأنا أرى الحياة تدب في ابنتي بعد كل تلك السنوات القاحلة التي جفت فيها روحها ونفسها...

عادت ملاك إلى المنزل وبيدها اللوازم التي اشترتها بعد أن انتظرت عودتها كأول يوم لها في المدرسة، أتنقل من غرفة لأخرى وأتفقد الشباك كل خمس دقائق. إلى أن أقبلت من الباب وثغرها يرسم تلك الابتسامة المشرقة التي اشتقت إليها وافتقدَتها حتى معالم وجهها. الابتسامة التي أشرقت في منزلنا فأزاحت غيوم الحزن المتكدسة لسنوات... هتفت في نفسي «يا إلهي إنه الربيع أخيرا». اقتربت مني، قبلت وجنتي ثم أرست سفينة عينها المتسائلة عن الكثير إلى عينيّ لكن شفتيها أطلقت العنان لسؤال واحد فقط:

هل هو نائم يا أمي؟

أجبتها بكلمات تسابقت مع سعادتي نعم يا عزيزتي إنه بغرفته.

رأيتها تتجه نحو المطبخ لوضع ما أحضرته ثم اتجهت بخطى متثاقلة نحو غرفته. لم ألبث لثوانٍ حتى وجدت قدميّ تحملانني وتتجهان بي نحوها، بقيت خلفها تماما وأنا أراقب خطواتها، ولوهلة خُيل إلي وكأنني أسمع دقات قلبها، لكنها كانت دقات قلبي الصارخة وأنا أشهد ما انتظرته وتأملت حدوثه طويلا... دخلت ملاك غرفة طفلها وأنا خلفها. كان مستلقيا في منتصف السرير وهو يحتضن وسادته. أشاحت ملاك بوجهها نحوي بابتسامة مزينة بدموع فرحتها: «أمي إنه فعلا طفلي فهو يحمل طباعي... انظري يا أمي إنه نائم بنفس الوضعية التي أتخذها عند نومي... إنه فعلا قطعة مني...»

أسرعت بخطواتها المتلهفة نحوه، اقتربت أكثر ثم انحنت بجسدها حتى تتمكن من رؤية وجهه بوضوح تام... اقتربت من وجهه ويبدو أنها قد تمكنت من رؤيته لأول مرة بهذا الوضوح... ابتعدت مرعوبة وصرخت: «يا إلهي»... « أمي إنه... إنه...»

لم تتمكن من الحديث، ثم انهارت على الأرضية وهي تجهش بالبكاء، أسرعت إليها ثم احتضنتها وعيناي ترمق الصغير الذي يبدو أنه استيقظ على أنغام بكاء والدته. أبعدتها عن حضني ثم وجهت رأسها ناحيته: انظري يا ملاكي ها هو طفلك قد استيقظ، وأعتقد بأنه يرغب في احتضان والدته كما تحتضنين والدتك... أزالت رأسها من بين ذراعيّ، نظرت إلى عينيّ وكررت: «أمي إنه»...

قبل أن تنهي كلامها رحت أصف لها أكثر ما يميزه: « إن شكله تماما نسخة طبق الأصل عن آدم. لكن داخله وطباعه تماما نسخة طبق الأصل عنك أنت. إنه مزيج بينكما، إنه تجسيد لوالديه...»

ما كان ليصدق أحد ما اختبرناه، فكيف لأم أن لا تعرف شكل طفلها وهي تعيش معه تحت سقف بيت واحد؟ لكنها كانت سجينة غرفتها وسجينة ماضيها وما لم أتمكن من تحديده هل انتظرته لكي يعود أم أنها كانت تعاقب نفسها على شيء لم أفهمه مطلقا؟

آدم

كعادة كل صباح، تستمر رحلتي مع منظمة أطباء بلا حدود، نجوب إفريقيا التي ما زالت تبهرنا وتجعلنا في كل مرة نتواضع وننحني أمامها لما نتعلمه في رحابها. وفي كل يوم بها تزداد قناعتي بأن إفريقيا هي الشطر المهم في كتاب الحياة على كوكب الأرض، وهي النوتة الرئيسية التي تعزف بها موسيقى ولحن الوجود لبني البشر. إنها إفريقيا التي هذبت الكثير داخل نفسي. في كل مرة نقصد فيها مكانا معينا من أجل معاينة السكان وتقديم العلاج يتهافت الكثيرون، أغلبهم نساء وأطفال.

وبعض قصص المرضى تخلف بداخلي ندبا سيؤلمني طالما جرحه لا يزال مفتوحا ومتعفنا لدى كل من يحمله. تماما كالندب الملوث بعار جريمة شرف، ندب معلم بفرج الكثير من النساء اللائي خضعن للختان بقطع بظرهن أو أسوء بقطع البظر والشفاه الداخلية معا، فلا يبقى غير فتحة صغيرة لخروج دماء الحيض بعد خياطة الجرح الذي سيشهد بزعمهم على شرفها إلى أن يفتق يوم زفافها. بينما تقبلت إحداهن الأمر وسلمت أنه شيء عادي تمر به كل النساء وهن يافعات في سنواتهن الأولى. هناك من تآكل داخلها من جراء الصدمة النفسية التي تعرضت لها ولم تفلح في أن تكون زوجة، أما البقية منهن فقد توفتهن المنية مبكرا فور بترمابين

سيقانهن بعد أن تشربت الأرض بدمائهن، لكن الأخريات صمدن قليلا إلى أن غزا التهاب جروح أرحامهن، فودعن الحياة وهن شريفات قتلتهن جريمة الشرف...

في كوخ من الخشب وبقايا الأشجار أخذت أتأمل في كل شيء من حولي، فلم تعد تأملاتي تقتصر على اتخاذ وضعية اللوتس والصمت لساعات، أصبحت تأملاتي أكثر واقعية، أعيش من خلالها اللحظة فقط، هنا والآن، لأنها بشكل صادم لا تستوعبه العقول كل ما يوجد بالزمن، الآن فقط...

أقبلت أول امرأة للمعاينة اليوم ومعها طفل صغير يبدو أنه المقصود، فهو لا يكف عن الصراخ ومقاومة والدته، محاولا التملص منها والهرب، أو بالأحرى الهرب مني لأنه أبدى انزعاجا وعدائية فقط حين رآني وأنا أتزين بمئزري الأبيض... بكلمات إنجليزية غير سليمة النطق مع جهد كبير بذلته والدته في محاولة منها تهدئة الوضع المتوتر: «أنا فعلا آسفة لما أحدثه طفلي، يبدو أنه متوتر وخائف لأنه مر بتجربة غير لطيفة البتة مع الأطباء من قبل».

اقتربت منهما، وقلت: «لا عليك سيدتي». وكعادتي عندما يكون مريضي طفل، وضعت يدي في جيب مئزري وأخرجت قطعة حلوى ثم قدمتها للصغير، تردد في بادئ الأمر لكنه اقترب أخيرا وأخذها معلنا عن هدوئه بعد عاصفة البكاء التي أحدثها. انتهزت الفرصة فحملته لكي أضعه على

سرير التشخيص، ثم وضعت بيده لعبة أطفال بشكل السماعة الطبية حتى لا يخاف وينفر مني عندما أضع سماعتي على جسمه لأفحصه. لست مختصا في طب الأطفال لكن «أطباء بلا حدود» جعلتنا نمارس الطب على أكمل وجه ممكن، وكل مريض هو مسؤوليتنا إن غاب الطبيب المختص، وهذا ما جعلني أبحث عن حيل تساعدني في التعامل مع الأطفال من مرضاي، ونجحت في كل مرة...

في أثناء معاينتي الطفل كنت أطرح بعض الأسئلة الروتينية على والدته. أقر بأنني وجدت صعوبة كبيرة في هذا، لأنها لم تكن تتقن الإنجليزية وأنا لا أجيد البرتغالية التي يجيدها السكان إلى جانب لغاتهم المحلية. وما زاد الطين بلة هو تأخر وصول المترجم المتطوع كي يسهل إجراءاتنا، لكن كل منا بذل جهده، فهي كانت تجيد بعض الكلمات كما أن كلينا استعان بالإشارة لتسهيل الفهم. وفي أثناء فحصي الطفل كانت أمه تتطلع إليه وكأنه العالم كله بالنسبة لها، روت عيناها الكثير لكنني لم أفقه سوى الكلمات التي هربت من بين شفتيها...

انتهى اليوم بعد فحص الكثير من النساء والأطفال وقليل من الرجال، لم نغادر القرية قبل أن نقحم أنفسنا في الاحتفال الذي تزين له الجميع بكثير من الحلي ورسوم على وجوههم وأجسادهم العارية. كان أحد أعيادهم التي أهم ما فيها هو القفز والرقص في دوائر...

ها أنا أرتمي على فراشي هاربا إلى النوم بعد يوم طويل ومتعب، وبعد إطفاء شموعي التي ترافق تأملاتي قبل النوم، لكنني لم أُخطف إلى النوم مباشرة كعادتي، فمن بين كل أحداث يومي لا تزال صورة الطفل وأمه بين عينَيّ، ولا يزال صدى جملتها الأخيرة التي بالكاد وجدت كلماتها بالإنجليزية يتردد في أذنَيّ: "إنه مزيج منا، طفلي يحمل كل طباعي وصفاتي لكنه صورة مصغرة عن والده. يحمل كل ملامحه وتفاصيل وجهه". بدت الجملة مألوفة بالنسبة إلي: «سيكون طفلنا مزيجا منا، سيكون داخله أنا وخارجه أنت، سيحمل طباعي وتفاصيل شخصيتي وسيحمل ملامحك وتفاصيل وجهك وكل شيء يميزك".

إنها الصورة التي رسمتها ملاك للطفل الذي كنا نتطلع إليه بعد زواجنا... ربما كنا سنرزق بذلك الطفل لولا تهوري وهروبي الذي أثمر بطريقة ما، لأنني أعتقد أنني وجدت ذاتي وأعتقد أنني قد شفيت من الجنون الذي كنت مصابا به. لكنني ما زلت لا أعلم متى ينتهي هروبي منك وأجد الجرأة والشجاعة الكافية لأظهر في حياتك مجددا وأخبرك بكل شيء، عندها فقط يمكن أن تغفري لي وتغفري تصرفي بأنانية لأنه كان من الممكن أن لا أتخلى عنك ونبحر معا في رحلة البحث عن نفسي...

ملاك

يبدو أن السعادة قد وجدت أخيرا سبيلها إلى منزلنا. أمي، طفلي وأنا في اجتماع قد طال انتظاره وتعبت قلوبنا من أجله... طفلي في أحضاني، يداه تتلمسان وجهي وعيناه البريئتان تترصدان عينَيّ بنبال من الأسئلة التي ليس في وسعي الإجابة عنها...

كسرت أمي الصمت السائد: «ما رأيك يا ابنتي لو أكملنا سعادتنا بطلب البيتزا؟ فهي رمز للسعادة أثناء اجتماعات الأصدقاء والعائلة، وأعتقد أن مشاطرتنا لقطع منها سيزيد سعادتنا، كما أن الصغير يحبها كحبك لها تماما».

لهفتنا في انتظار حضور الطلبية وتذوق البيتزا ما هي إلا لهفة لمشاركة السعادة بيننا... ها قد رن جرس الباب، وبما أننا نفتقر إلى أي زوار فمن المؤكد أن البيتزا قد وصلت... إنها تماما كما أحبها مليئة بالجبن. حقا إن البيتزا تزيد سعادتنا والجميع متفق على هذا. لكنني أعرف لغز السعادة المصاحبة لتناول البيتزا أو بالأحرى «خدعة البيتزا» كما يسميها آدم. فعند اقتراح والدتي للبيتزا مباشرة فتح ملف ذكرياتي الذي يحمل تفاصيل كل اللحظات التي قضيتها معه... «حبيبي آدم اشترِلي بيتزا، أنا أشعر بالجوع يعذب أمعائي وهي الآن تصرخ طالبة مني نجدتها، هذا كله بسببك لأنك

جعلتني أمشي كثيرا وقد فقدت كل طاقتي. أعلم أن كونك طبيبا يجعلك لا تحب الأكل غير الصحي، لكن البيتزا تختلف كثيرا، إنها تبث بداخلنا السعادة... أرجوك اشترِ لي بيتزا... أرجوك»...

كل ما فعله آدم حينها هو الاستهزاء بي والتفلسف الذي دوما يكون في محله: «متى تنضجين وتكفين عن تصرفات الأطفال؟ حسنا.. توقفي عن استفزازي بملامح وجهك التي تجعلني أضعف أمامك ولا أرفض لك أي طلب، كما أن عنادك سيدفعني إلى تنفيذ رغباتك فلا تلحي أكثر. لكن قبل أن أشتري لك البيتزا سأخبرك أولا بما أسميه خدعة البيتزا؛ كل السريكمن في السيروتونين أو هرمون السعادة، فمحبوبتك البيتزا تكمن فيها السعادة في جبنة الشيدر الغنية بالحمض الأميني التريبتوفان الذي يتحول أثناء هضمه إلى نياسين، الذي يتحول بدوره إلى الناقل العصبي السيروتونين، هرمون السعادة... فسر البيتزا هو نفسه سر الشكلاطة... لكن هناك مصادر صحية أكثر تحفز السيروتونين في الجسم وترفع سعادتك دون الحاجة إلى الأكل غير الصحي. فأشعة الشمس تغذيك بالفيتامين دال الذي بإمكانه تحفيز السروتونين لديك... وإن كنت تحبينني فعلا، فلن تحتاجين إلى البيتزا من أجل رفع سقف سعادتك لأن الجلوس مع الشخص الذي نحب يحفز جسمنا على إفراز السيروتونين ورفع سعادتنا إلى أقصى حدودها. اسعدي بوجودي معك وكفي عن الادعاء بأنك جائعة...»

أم ملاك

أخيرا تكرمت علينا العريقة لندن ببعض من جانبها المشرق الذي يظهرها أكثر جمالا. اعتقدت أنه لم يكتب لنا سوى رؤية جانبها الملبد بالغيوم التي لا تنفك عن إرسال دموع من الحزن والضياع وسط الضباب الذي لم يرضَ أن ينقشع ويترك لنا سبيلا واضحا نمضي فيه. الحمد لله لقد انقشع الضباب الذي بدا أبديا وأشرقت شمس السعادة أخيرا لنتمكن من رؤية الوجه المبتسم لمدينة لندن قبل أن نغادرها ونعود إلى مدينة مانشستر...

انتهينا أخيرا من توضيب كل أغراضنا، ونحن جاهزون للعودة إلى المدينة الغالية على قلوبنا. في الحقيقة أنا لم أشأ مغادرتها على الإطلاق، لكن لا رغبة لي أمام رغبات وحيدتي، فهي من غادرتها لأنها لم تتحمل العيش فيها وكل ركن وزاوية بها يحمل من الذكريات ما لم تتمكن من العيش في ظله، لكنها اليوم ترغب في العودة وأعتقد بأن لها من القوة والشجاعة ما يكفي لمواجهة مخاوفها والحياة التي هربت منها. ابنتي تعلمت الكثير خلال السنوات الأخير وأنا أيضا تعلمت معها الكثير... فقط التجارب الصعبة هي التي تكشف عن حقائق الحياة.

ملاك

حبيبتي لندن كانت الوجهة التي اخترتها عندما هربت من آلامي وخيبتي، لم أفكر مطولا حينها، كل ما قمت به هو إخبار والدتي بأنه علينا الانتقال إلى لندن. لماذا هي بالذات؟ صدقا ليس لي إجابة غير أنها أول مكان رأيت فيه الملجأ بعد الهجرة من حياة سابقة... لا تخافي يا حبيبتي فأنا لن أربط اسمك بالحزن والكآبة، ستكونين لي رمزا للقوة والحقيقة، فمهما خيم عليك الضباب الذي يخفي معالمك فسيكون لك في النهاية لقاء مع أشعة الشمس التي تظهر جمالك. ربما لهذا السبب اخترتك حينها، لأنني كنت في حاجة إلى تعلم كل هذا منك... سأغادرك الآن بعد أن انقشع ضباب الكآبة عني وأشرقت شمس سعادتي... سأغادرك الآن وأنا متشبعة بالقوة والصلابة التي اقتبستها من شتائك الطويل...

كان لا بد من العودة إلى مانشستر؛ فليس من اللائق ترك الفوضى خلفنا. ليس من اللائق الاستمرار في الهروب والاختباء خلف قناع الضحية المسكينة التي أصابها كل مصاب وليس لها أي دخل، وليس بيدها أي حيلة. الآن أصبحت على يقين تام بأنه لا وجود للضحية في العلاقات، وكلٌّ مسؤول عما يصيبه بوعي منه أو دون وعي... علي مواجهة مخاوفي وعلي تقبل ما أنا عليه. سلمت كل أموري للخالق واخترت العيش دون قيود.

لن ألعن الحب لأنني ما زلت أؤمن بأنه أصل كل معجزة، وما زلت أعتقد بأن الوجود قد فطر على الحب ونحن خلقنا من حب... الحب سامٍ ويصيبه دنس من اللعنات التي تولدها خيبات علاقات فاشلة انعكست فيها كل «ترومات» الطفولة، فأصبح الحب مقيدا بشرط «سأحبك فقط لو...». ليس من السهل ابتلاع هته الحقيقة لكنها الحقيقة، فالحب شفاء وليس من المعقول أن يصحب بالألم واحتراق الأنفس.

إذن لماذا حدث معي كل ما سبق؟ ألم يكن سببه حب أحدهم قد هجرني؟ قطعا لا، كان حبي المشروط له وتعلقي به هو ما دمرني. فقط لو استوعبت نفسي تلك الحقيقة مبكرا لما ضيعت من عمري سنوات أتخبط في وحل الاكتئاب، أختنق بحباله المتعفنة. فقط لو كنت مدركة للحقيقة كما هي. كنت لأحزن بعمق لأيام، شهور، أو سنة بعد رحيله ثم أعود إلى ممارسة الحياة بنسخة أقوى مني، أحمله بقلبي كندب جميل يشير إلى رحلة بحرية جميلة غرقت بنا سفينتها في عرض البحر لكنني نجوت بعد تجديف قوّى عضلاتي أكثر. أنا مقتنعة الآن أن الحب الذي يلوثه الألم ليس صافيا كفاية، فربما يكون محض تعلق بالآخر. والحب الذي ينتهي أمام المشاكل التي تمتحنه ليس حبا... والحب الذي يتبخر في حر التجارب ليس حبا، لأن الحب ينصهر ولا يتبخر... يتشكل من لا شيء ولا يفنى بعدها... الانتقام وتمني السوء للآخر لا ينجم عن قلب قد تطهر بحب خالص. وإن لم يمت الأنا المتنكر بسيف حقيقة وطهارة الحب فليس من الممكن أن يكون ذلك

حبا. إن كان الحب هو أسر للآخر فهو ليس حبا. إن كان الحب معتقلا مقيدا بشروط، فهو ليس حبا... كان الألم ضروريا حتى تحترق بناره كل بقايا التعلق والحب المشروط فلا يبقى منه غير الحقيقي.. كان الألم ضروريا حتى تُصهر بناره نفسي ويعاد تشكلها في صورة أقوى، أرقى وأجمل من السابقة...

بعد أن حطت الطائرة على أرض مانشستر، اعترتني رجفة هزت كل كياني. أنا أعتبر المدن كالأفراد تماما، فلكل منها شخصية متميزة. وها قد بدأت مانشستر تعبر عن نفسها؛ هي أقل حدة وأكثر شفافية من لندن... بداية من أول خطوة خارج المطار، شعرت بالغثيان وبصداع رهيب في رأسي بسبب تهافت كل الذكريات التي عشتها هنا... أما طفلي، فيبدو أنه أحب مدينته الجديدة. لكن تقاسيم وجه والدتي تنذر بأنها خائفة أو مستاءة من شيء ما، لقد تغير لون وجهها من البهجة إلى لون الحيرة والقلق منذ أن ركبنا التاكسي. وزاد وجهها تجهما عقب إعلامي السائق بالعنوان المنشود. كانت قلقة مما قد يصيبني بالمنزل الذي بدأ فيه كل شيء وانهار فيه كل شيء. لكنني واثقة بأنها ستغير رأيها لأنني لن أصاب بشيء، بل أنا متشوقة لاستعادة كل الذكريات الجميلة...

لا يزال المنزل على حاله، وكأن الحياة التي شهدها لم تغادره قط، لا يزال محافظا على طلاء الجدران وصلابة الأرضية الخشبية. كل الأثاث في مكانه، لا يزال بسيطا ومرتبا، تملؤه الحياة ولا ينقصه سوى القليل من

التنظيف لإزالة الغبار الذي تراكم على كل الأسطح، لكنه لم يفسد شيئا. ليت حياتنا كانت مشابهة له؛ فلما يُزال عنه الغبار يعود إلى ما كان عليه، لكن حياتنا بعد إزالة الغبار عنها تكشف لنا عن وجه جديد.

هرعت مهرولة نحو السلالم حتى أتفقد غرفتنا، إنها بتصميم مميز جدا، وليدة مخيلته وأفكاره، بأرضية خشبية ذات لون باهت وجدران يبدو وكأنها ناتجة عن نقش لأحد الصخور ولا يبدو عليها أنها بنيت لبنة، لبنة. والغرفة خاوية من الأثاث تقريبا، ولا يعمرها سوى الفرش الأسود المنبسط على الأرض وبجانبيه درجين خشبيين يبدو عليهما أنهما من العصر الفيكتوري. أحدهما تملؤه بعض من الكتب المحببة إلى آدم والتي يصب مضمونها في دراسة العلوم والحضارات، أما الدرج الآخر فتعلوه نبتة الأشواك التي كان يتفاءل بوجودها بجواره. وأكثر ما يروقني بالغرفة هو الجدارية التي تزين الحائط الذي يستند إليه السرير، وهي عبارة عن قطعة سوداء بالكامل على شكل خريطة العالم. هي مميزة عن باقي خرائط العالم لأنها تصوره كقطعة واحدة، دون أن تظهر عليها الحدود التي تشوهه.

لم أرغب قط في تغيير الغرفة بعد زواجنا، أحببتها لما هي عليه، كما أنني وجدتها تحمل لمسات غريبة بمعاني غامضة كانت تعكس نفس الغموض الذي ينبثق من عينيه.. أوه، لقد غيرت شيئا بالمنزل بعد مشاركتي إياه مع آدم: العلية. اشتقت إلى التواجد بها، كانت بمنزلة هدية جميلة ومعبرة، بحيث غير تصميمها من مجرد علية مهملة إلى حجرة ساحرة هي عبارة عن

درج ضخم للكتب، باستثناء مدخلها وسقفها الذي بقي مكشوفا مغطًى بزجاج يطل على السماء، وهذا ما جعلني أعيش قصة من التناقض؛ فأنا أحب هطول الأمطارولكنني أصبحت أعشق السماء الصافية حتى يتسنى لي مراقبة النجوم، لا سيما كوكبة الثريا، البلييديز، أو الأميرات السبع اللائي يحرسهن الثور بقرنيه الموجهين إلى الجبار المتسلط. أستأنس بوجودهن ولا أمل من التحديق فيهن خاصة إن كان كتابي المختاريتحدث عن أسطورة ميثولوجية...

ارتاحت أمي أخيرا بعد أن بطل ما كان بخيالها، لأنها لم ترصد سوى ابتسامتي بينما تنقلت في أرجاء المنزل، ولا سيما بعد أن كشفت لها أنني أنوي بعد تنظيف المنزل الخروج للتجول في المدينة حتى يراها صغيري، وبعدها سأتفقد معارفي وزملائي في العمل... يا إلهي كم أتوق إلى السماعتين الضخمتين من قاعة البث بالإذاعة!

الفصل التاسع

«الحقيقة كانت مرآة بيد الله وقعت وتشظت... كل فرد أخذ قطعة منها، نظر إليها وخال أنه يملكها كاملة».

جلال الدين الرومي

ملاك

تجربة الانعزال لم تكن سيئة لأنها جعلتني أرى الحياة بشكل مختلف. سمحت لي برؤية معالم نفسي من زوايا مختلفة، فرأيت ضعفي دون أن يكون مغلفا بما أدعيه عني، لكنني تمكنت أيضا من رؤية قوة الوجود بداخلي. رأيت أين يكمن بداخلي ليلي ونهاري، وكل المتناقضات التي باجتماعها فقط تكون الحياة... بدأت مؤخرا بتذكر شيء عني، شيء أبعد مما اعتقدت يوما أنه أنا، شيء لم تتضح معالمه لي بعد لكنني على يقين بأنه موجود...

الألم الرهيب والتجربة القاسية جعلتني أخيرا أرى الأمور على حقيقتها، ومن كنت أعتقد أنه أنا كان مجرد زيف ووهم حاول أن يقنعني بأنني أعاني من أشد الآلام على وجه الأرض. لكن الحقيقة أن التجربة الأليمة مهما اختلفت تفاصيلها من شخص إلى آخر فهي الأشد ألما، وما اختارت أرواحنا الانكماش في شيء دنيوي مؤلم إلا لتذكرنا بطبيعتنا خلف كل ما أسميناه أنه هو نحن. أشعر أنني استيقظت على بعد جديد، لكنني لا أرى بوضوح بعد. لهذا أشعر أن داخلي يبحث عن امتحان خبرات جديدة، ألمس بها ذلك الشعور الذي لا يمكنني وصفه الآن، أبحث عن شيء يسع ما أنا به الآن...

لقد مر شهر على عودتي إلى مانشستر، أو بالأحرى عودتي إلى الحياة. لكن مع العودة الجديدة اجتاحت داخلي رغبة شديدة في تجربة أشياء جديدة خارجة عن نطاق الحياة التي عشتها سابقا، وخارجة عن نطاق كل التوقعات التي رسمتها عني. أريد أن أتسلق إحدى جدران الصندوق الذي نعيش في داخله وأتطلع إلى ما يوجد خارجه. وهذا ما جعلني أفكر كثيرا في ما أخبرتني به إحدى زميلاتي بنادي تعلم اللغة العربية عندما زرتهم فور عودتنا إلى مانشستر... أخبرتني عن انضمامها إلى منظمة عالمية بشكل تطوعي وكعمل في آن واحد. بدا لي الأمر رائعا سال له لعاب فضولي... في بادئ الأمر تعجبت كثيرا لأن اسم المنظمة هو «أطباء بلا حدود»، مما جعلني أعتقد أن زميلتي قد أصابها نوع من داء خفة الدم التي لم تمتلكها من قبل. اعتقدت حينها أنها تمزح معي بخصوص انضمامها إلى هذه المنظمة، لأنها لا صلة تربطها بالطب، لا من قريب ولا من بعيد. لكن اتضح أن ادعاءاتها كانت صادقة لأن المنظمة لا تستقبل فقط الأطباء أو من لهم خبرة في المجال الطبي، المنظمة ترحب بالجميع. كل من يسعى إلى تقديم المساعدة لمن يحتاجها في بقاع الأرض المظلمة التي لم يصلها نور الاستقلالية ولا يسعها حمل نفسها على أرجلها المشلولة.

فكرت مليا في الانضمام إلى المنظمة. سأحاول المساعدة في قسم التعليم، يمكنني تلقين اللغة العربية والانجليزية معا، وسأتبرع بكل كتبي علها تفتح نوافذ الفكر لمن يحتاج إليها... كل ما تطلبه الأمر مني هو زيارة الموقع

المخصص للمنظمة وتقديم طلب الانضمام مع الإجابة عن الأسئلة المدرجة ضمن خطوات تقديم الطلب، التي توضح طبيعة العمل والتأكيد على خوض هذه التجربة...

وجدت صعوبة في تدوين الرسالة التي أبين فيها سبب رغبتي في الانضمام، ليس لأنني لا أعلم، ولكن بسبب المشاعر التي غمرتني وأنا على وشك دخول عالم جديد، وكل ما أنتظره الآن هو تاريخ التحاقي بهم والمنطقة التي سيكون لي الحظ في زيارتها أولا. لا أعلم كيف يقسمون المهام، لكن أعتقد أن للمعلومات المتعلقة بكل متقدم دور في اختيار مهامه والمنطقة... اختلط داخلي بمشاعر قوية تماما كنكهة القهوة التي شاركتني التغيير الذي أحدثه في حياتي، وما صعّب عليّ اعتبار تدفق كل هذه الأحاسيس المبعثرة أمرا طبيعيا تماما يسبق كل قيامة جديدة، هو تدفق ذكريات جمعتني بآدم، ذكريات فتح لها الباب بعد أن قرأت شعار المنظمة:

« No color .. no religion .. no race »

بعد ارتشاف القليل من القهوة التي لا تكتمل نكهتها إلا بالتواجد بمقهانا المفضل الذي لم أعد أفرق بين إدماني لقهوته أو لتصميمه المتفرد، وأكثر ما كان يأسرني هو طاولاته الخشبية التي تبدو غير متماسكة بسبب تباعد الألواح التي تشكل سطحها، وفي كل مرة أضع فيها قدحي يخيل إلي أنه سيهوي في الهوة بين تلك الألواح التي احتفظت بلون قلب الشجر وعبق الغاب الذي قطعت منه. ومن يختلس النظر إليّ وإلى آدم يعتقد بأننا نلعب

تداول حمل قدحي القهوة...

كالعادة بعد أحاديثنا الطويلة، خيم طيف من السكون بيننا وسط الهمس والضحكات المحتشمة المتسللة من بينها أنغام موسيقى كلاسيكية. راح كل منا يحدق في الآخر. أما أنا، فأكثر ما أحبه في مدينتي هو رؤية الناس من مختلف الأجناس والألوان واختلاف الألسنة والأديان والطوائف... اختلاف شاسع، ولكن بطريقة ما في نهاية تأملي أجد بأن الجميع متشابهون، بل أراهم جميعا على صورة واحدة.

قطعت أنفاس الصمت بيننا وتجرأت على طرح سؤال شغل ذهني حينها، كما أن آدم لم يحدثني به من قبل:

- ما ديانتك يا آدم؟

وضع كوبه بهدوء على الطاولة دون أن ينظر إليّ، جمع يديه بعد أن تشابكت أصابعه. أخذ نفسا طويلا ثم تنهد بهدوء كشيخ حكيم سألتَه عن شيء هو يعلم أن إجابته لن تكون مفهومة لك، نظر إليّ وابتسم أخيرا ثم تحدث:

- سأروي لك ما كان يجيب به أينشتاين طلابه في العديد من الجامعات الأمريكية على السؤال الذي كان يتكرر على مسمعيه، وأريدك أن تنصتي إلى القصة بقلبك لا بعقلك... «سيد أينشتاين، هل تؤمن بالله؟» ... وقبل أن أخبرك بجوابه، أرجو أن لا تحكمي عليه من منطلق تفكيرك، أو عقيدتك أنت، فقط تأملي قوله، وإن استفزك فتذكري أنه مجرد قول

لفيلسوف يفهم فلسفته ولا نفهمها نحن عنه.

كان أينشتاين يجيب في كل مرة: «أومن بإله سبينوزا»! وكان أينشتاين يقصد ما كتبه سبينوزا: «لا أعلم إن كان الله فعلا قد تكلم، لكنه إن فعل فما قد يكون قاله لكل مؤمن هو كالآتي: توقف عن الصلاة وعن ضرب صدرك، فما أريد أن تفعل هو أن تخرج للعالم وأن تتمتع بالحياة. أريدك أن تتمتع وتغني وتعمل. أريدك أن تستمتع بكل ما قمت به من أجلك. توقف عن الذهاب إلى المعابد المظلمة والباردة والتي بنوها وقالوا عنها مسكني، مسكني في الجبال والأشجاروالوديان والبحيرات والأنهار. هناك حيث أعيش معكم وحيث أعبرعن حبي لكم. توقف عن اتهامي بالمسؤولية عن فقرك. لم أقل لك أبدا أن هناك شيئا ما شريرا بداخلك كما لم يسبق لي أن قلت لك أنك ارتكبت خطيئة. لم يسبق لي أن قلت أن ممارستك الجنسية وأن فرحك يشكل عملا قبيحا. إذن لا توبخني على كل ما قيل، لكي تؤمن به. توقف عن ترديد القراءات المقدسة التي لا علاقة لها بي، فإذا لم تتمكن من قراءتي أثناء الفجر في منظر طبيعي، في نظرة صديق، في زوجة، في نظر طفلك، في جارك، في فقيردق على بابك، فلن تتمكن من أن تجدني في أي كتاب. توقف عن الخوف مني فلن أحاكمك ولن أنتقدك. أنا لا أغضب ولا أعاقب. أنا هو الحب الخالص. ملأت قلبك بالانفعالات، بالرغبات، بالأحاسيس وبالحاجيات غير المنسجمة، وفي نفس الوقت منحتك الإرادة الحرة، فكيف يمكن لي أن أوبخك حين تستجيب لما وضعته أنا فيك؟ كيف لي أن أعاقبك وأنت على هذه الحال التي جعلتك

عليها؟ هل تفكر بشكل حقيقي وواقعي أنه يمكن أن أخلق مكانا لأحرق فيه كل أبنائي وإلى ما تبقى من الأبدية اللذين يتصرفون بشكل قبيح؟ أي نوع من الآلهة هذا والقادر على أن يقوم بذلك؟ فإن كنت بهذا الشكل فإني لا أستحق أن أكون محترما. لو كنت أرغب فقط في أن أطاع لعمرت الأرض كلابا. احترم الشبيه ولا تفعل ما لا تريده لنفسك. كل ما أطلبه منك هو أن تنتبه لحياتك وأن تكون إرادتك الحرة هي الموجهة. إنك تشكل مع الطبيعة عنصرا واحدا لذا لا تعتقد أن لك سلطة عليها، إنك جزء منها. اعتنِ بها وستعتني بك. لقد وضعت فيك كل ما هو خير لك وجعلته في متناولك، وجعلت من الصعب الوصول إلى ما ليس كذلك، فلا توظف عبقريتك في ما هو سيء فيها لأجل الحفاظ على توازنها لصالحك. عليك بالحفاظ على هذا التوازن متماسكا، فالطبيعة نفسها تعرف جيدا الحفاظ عليه، فقط ينبغي عليك عدم إزعاجها. لقد جعلتك حرا بشكل مطلق، أنت حر في أن تخلق حياتك جنة أو جحيما. لا أستطيع أن أقول لك إن كان شيء بعد هذه الحياة لكن أستطيع أن أعطيك نصيحة، توقف عن الإيمان بي بهذا الشكل الذي أنت عليه والذي لقنوك إياه، فأن تؤمن هو أن تفترض وأن تتخيل وأن تتكهن. لا أريدك أن تؤمن بي، أريدك أن تحس بي في ذاتك حين تهتم بأغنامي، حين تحتضن طفلتك الصغيرة، حين تداعب كلبك وحين تستحم في النهر. عبر عن فرحك وتعود أن تأخذ فقط ما تحتاجه. إن الشيء الوحيد اليقيني هو أنك هنا والآن وأنك حي، وأن هذا العالم مليء بالعجائب التي بإمكانك أن تتعرف عليها وبشكل حقيقي على ما تحتاجه

فيها. لا تبحث عني بعيدا، فلن تجدني. إنني هنا في الطبيعة، إن الكون هو أنا».

أنهى حديثه عن إله سبينوزا بينما تجمّدت وخلا وجهي من كل التعابير. فقط سؤال واحد طرق فكري: «كيف لي أن أعيش مع شخص له إيمان كهذا؟ صحيح أنني أحب القراءة، لكنني لا أحبذ الخوض في غمار الفلسفة. أفضل أن أقرأ رواية منسوجة بكل التفاصيل التافهة عن قصة لا تمتّ للواقع بصلة، على أن أجد نفسي تائهة في أقوال الفلاسفة... لكنه تمكن من قراءة ما يدور بخلدي، أمسك بيدي وابتسم لي بعد قوله:

- أخبرتك أن تنصتي إلى كلامي بقلبك حتى لا يهاجمك عقلك، لأنه لا يحب كل ما هو غير مألوف له. ثم لا تسقطي القصة التي أخبرتك بها عليّ. أردت فقط أن أفتح لك آفاقا أبعد تفكرين فيها بحرية دون أن تخافي... لا تخافي من أفكاري أنا عن الله تعالى، أنا مؤمن. مؤمن بيقين ولا ينقطع قلبي عن ترتيل الصلوات... لكن إيماني ليس من النوع الذي يجعلني أعتقد بأن هناك رجلا عجوزا في السماء ينظر إلينا! إيماني خالص بالخالق وبقدرته، فما من عاقل ينكر وجود إله عظيم تظهر قدرته في كل شيء. أنا أحب العلم لكنني لست من الماديين الذين يعبدون أهواءهم وقد عميت أعينهم عن الحقيقة. كيف يدعون العلم وهم يغفلون عن أبسط الآيات التي تدل على وحدانيته تعالى وتنفي نشوء الكون بالصدفة؟ كيف لم يلتفتوا إلى تفاصيل النسبية الذهبية أو كما يسميها البعض بصمة الإله؟!

تحدثت في سري: عمّ يتحدث هذا المجنون؟ بصمة الإله! لم يسبق لي أن سمعت بهذا المصطلح... أفلت يدي ثم أشاح بنظره عني ليوجهه صوب الشجيرة في ركن المقهى، ثم استرسل في حديثه:

- يمكنك القول بأنها موجودة في كل شيء، نافية لكل ادعاءات نشوء الكون بمحض الصدفة. إنها في هندسة الجسم البشري، بدء بالحلقات الحلزونية التي يلتف بها الحمض النووي إلى غاية النمط الظاهري في الأعضاء كتناسق الوجه والأطراف. بصمة الإله تطبع كل الطبيعة وما فيها، في الحيوانات كالحلزون وهندسة خلية النحل. في نمو النباتات بأوراقها وأغصانها وبتلاتها وأزهارها وثمارها... النسبة الذهبية تظهر بوضوح في حركة دوران المجرات و...

توقف عن الحديث وتنهد بعد زفير طويل، ثم نظر إلي وقال:

- صدقيني، إن الحديث عن هذا لن ينتهي وإن تدخلت الأرقام لتثبت ذلك فإنها ستتصف بقمة الجمال، ولكن لعلمي بعلاقتك المميزة بالرياضيات وخوارزمياتها لا أحبذ أن أعكر صفو لطافة الوصف السابق، لكنني أوصيكِ بالتأمل في كل شيء من حولك.

لم أتمكن من فهمه يوما، أحيانا كان ذاك الحكيم يصب كلاما في محله، وأحيانا أخرى مجنونا لا علم له حتى بذاته!

آدم

Person

Persona

البارسونا، الكلمة اللاتينية التي تنبثق منها كلمة بارسن وبمعنى الشخص، وكل ما يندرج تحت تعريفنا لأي شخص على أنه هو. لكن البارسونا تعني القناع، لذا كلنا نرتدي أقنعة ونعتقد أنها هي نحن. لكنها الأنا التي تتغذى من الإيغو وتشكل لنا صورا وهمية حتى نصدق أنها ما نحن عليه.

كيف وقعنا في فخها؟ بكل بساطة لأننا لا نعلم حقيقتنا الفعلية فاضطررنا إلى نسب أنفسنا إلى نسبنا، أسمائنا ووظائفنا. نتلهف كل يوم حتى نقتنص شيئا من الخارج يزود قيمة ذاتنا الوهمية...

انطلقت في رحلة للبحث عن ذاتي لكنني في الأصل كنت أبحث عن ذاتي الوهمية. حاولت أن أجد نسبي لكنني لم أفلح في ذلك مما جعلني أشعر بنقص حاولت ملأه بكل شيء تمكنت من تجربته، لكن كل هته الأشياء كانت تغذي ذاتي الوهمية وتزيد من مسافة البعد بيني وبين حقيقتي. إلا تجربة الحب مع ملاك، ولأنه كان حبا طاهرا لا يندرج تحت المشروط، ولأنه كان حبا سماويا دفع بي أخيرا إلى الهرب بعيدا مما جعلني أعتقـــد في

بادئ الأمر أنني فشلت في الحب وأنه كان مسكنا مؤقتا، لكنه كان إكسيرا لم أفهم طريقته لأنني لم أكن بمجال يسمح لي برؤية ما أراه حاليا. فبعد انكشاف شيء من الحقيقة، رأيت أن الحب من قادني إلى رحلة وجدت بها ذاتي الحقيقية التي استعانت به كدليل لها يرشدها بين متاهات الوهم؛ لأنها تنتمي إلى سمائه...

عند بداية اتضاح الرؤية لدي، تمكنت لأول مرة من الاستماع إلى تلك الأصوات القبيحة داخل رأسي، لم أعد خائفا منها؛ لأنني أدركت أن سلطتها علي أنا من يمنحها لها. وأيقنت أنها ستطاردني ما دمت أهرب منها؛ لأنها تعشق لعبة الاختباء. سمحت لها بالحديث معي بصوت مسموع، صوتها الذي لطالما ارتجف كياني خيفة منه. لكنني بالإصغاء لها اكتشفت سرها؛ إنها أسيرة هي الأخرى، وهي بدورها تبحث عن حريتها. نحرت العداء بيني وبينها حتى دلتني على الطريق إليها، وأخبرتني بصدق أنها مأسورة بداخلي وهي لا تجد طريقها حتى تنعتق إلى سماء الحرية. أخبرتني بأن سلاسل قيدها مدفونة بعمق إحدى الأراضي المنسية بداخلي، التي تحولت إلى مرتع للأشباح يحتفلون بكآبتي التي يتغذون منها، يقدمون قرابين للخوف لأنه وليهم.

أرض الأشباح هي التي خيم عليها الظل بداخلي، والسبيل إليها هو إزاحة هذا الظل، بداية من أول خطوة خطوتها نحو الدرك السفلي بداخلي، لألتقي بشياطيني التي كانت تحرص وتسهر على بقاء هذا الظل قائما لا

تطاله يد من النور. لكن أفكاري هي الأخرى كانت مغيبة؛ لأنها ما كانت أسيرة بحق لقد كانت هي السجن والسجين والسجان. لم تصدقني عندما أخبرتها بحقيقتها وادعت العفة والضعف، فما كان لي إلا إخراجها إلى النور حتى تتطهر ويسقط حجاب الظل التي شكلته، فأتمكن من الرؤية بوضوح أكثر. وعند مواجهتي لشياطيني، كان علي أن أفهم جيدا أننا صغار للنور والظلام معا. واختيار نسب أحد الأبوين تعود حريته لنا، فاخترت أن يكون نسبي النور. لكن كان علي أن أتسلح من أجل معركتي في جعل شياطيني تفهم أنني اخترت النور لكنني لا أنكر نسبي الظلامي هو الآخر. ولم يكن أي سلاح سيجدي نفعا غير الحب السماوي لخالقي ولنفسي كما هي وللحياة وكل ما بها، دون شروط لا تجعله حبا سماويا، وتبعد قواه التي تجعل كل الوجود متماسكا، والحب هو النور الذي يخيف ويرغم الظلام على التحول إلى طاقة نورانية. الحب هو حجر الفلاسفة الذي يحول أي شيء إلى ذهب خالص...

من يسمع كلامي هذا، يقول إنني اعتنقت التصوف أو ارتدت إحدى المدارس الباطنية. لكنني لا أصنف نفسي ضمن أي شيء؛ لأنني أدركت بأنني بلا حدود، مثلي مثل كل بشري نائم لم يستيقظ بعد على حقيقته، فبقي مأسورا يتخبط من انتماء إلى آخر ومن صندوق إلى آخر. لا يمكن حشر روحي في أي توجه؛ لأنها تحمل في داخلها بفضل الخالق كل شيء، كما قال الإمام علي: وتحسب بأنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. لكن قبل أن أدرك كل هذا، كان علي أن أبحث في لب كل ما أختبره وكل ما

حولي لأجده يحمل لي إشارة توجهني في بحثي. بداية اعتقدت أن الإشارات ترسم لي طريقا سيوصلني إلى مكان ما، مكان أجد فيه من يجيبني عن أسئلتي الوجودية. فكانت تأخذني الإشارات وترشدني إلى كتاب، حكيم، صورة أو طفل.

لكن لم يكن الجواب عند أي منهم، استمرت الإشارات تدلني خطوة بخطوة حتى بدأت أتعجب في المنعطف الذي اتخذته والذي كان اتجاهه نحوي أنا، ليعلمني أنه لا شيء خارج عني وإنما الكل بداخلي. لم أتمكن من استيعاب الأمروزاد الأمر علي تشويشا. لكن تذكر موقف من طفولتي قد أنارفهمي لكذا شيء معقد، وأنا طفل عندما أكون في موقف أتعرض فيه للأذى، أغمض عينيّ حتى يختفي كل شيء. إنها الفطرة التي تخبربالحقيقة، ففعلا لا وجود للعالم الخارجي، وما نراه ما هو إلا انعكاس لدواخلنا. ليس من السهل فهم وإدراك هته الحقيقة التي لن يصدقها أغلب البشر؛ لأنهم معمى على عيونهم بمادية الأشياء، فقط وحده الطريق الذي عبدته لنا أرواحنا من يجعلنا نلمس هته الحقيقة. وعندما اتبعت هذا الطريق الذي كان اتجاهه دوما موجها إلى داخلي تمكنت من إيجاد نفسي، أوكأصدق قول تمكنت من رؤية ذاتي الحقيقية؛ لأنها كانت دائما معي، والتي بإدراكي لها استطعت أن ألمس بها خيوطا من نور الأبدية... لم أكن نسبي، ولا عائلتي. لم أكن اسمي ولا وظيفتي ولا معرفتي... أنا ذاتي العليا التي يظهر جوهرها عند تجريدها من كل إضافة جاءت بعد الولادة... أنا الهدوء خلف ضجيج العقل العاجزوالمحدود وأحكامه واستنتاجاته...

أنا لست مجرد جسد فقط، أنا روح تملك جسدا يسمح لها باختبار تجربتها المادية العابرة... أنا روح تخوض تجربة أرضية دنيوية بتقمصها دورا يفتح لها أبواب مسرح الحياة، كادت أن تُخدع بأنها إحدى الأدوار التمثيلية التي جسدتها...

وصلت إلي شيئا فشيئا، بداية عندما بدأت أرى انعكاسي في كل شيء وكل شخص من حولي. فأدركت أن لا انفصال بيني وبين كل موجود. عندها فقط رأيت أني في ابتسامة طفل وفي دمعة شقت طريقها على وجنتين مترهلتين لعجوز... رأيت أني في صوت أم تغني تهويدة النوم لصغيرها... رأيت أني في خيط الشمس وهي تقبل الأرض صباحا... رأيت أني في قطرة المطر وهي تبلل التربة لتنبت زهرة تعكس لي الجمال النائم بداخلي، وفي قطرة أخرى وهي تشق طريقها من شعب إلى وديان ثم أنهار حتى تصب في البحر ومنه إلى انتمائها الأول المحيط، لتريني المرونة وسحر التكيف بداخلي وأنني قطرة من الكل... رأيت أني في رياح اشتدت أمسية إحدى الأيام لتريني القوة بداخلي... رأيت أني في ذاك الجبل المنتصب ليرشدني إلى الشموخ بداخلي... رأيت أني في النجوم لترشدني إلى الأبعاد السامية بداخلي... رأيت أني في كل شيء ورأيت كل شيء فيّ... رأيت الكون في داخلي، فأصبحت كالأبكم الذي لا قدرة له على وصف مكان سري قد جرفته إليه الأقدار داخل غابة منسية...

إذا من أنا؟ ومن خلف كل من يقول أنا زيفا وهو لم يستيقظ بعد؟

أنا الفراغ الرحب بين ما هو متجسد... أنا المسرح الذي تمت فيه أحداث قصتي... أنا الشاهد على كل ما حدث لي وكل ما خلته أنا... أنا الشاهد على الحياة، وأنا الحياة بذاتها... أنا اللامحدودية، واللامشروطية... أنا المراقب الذي يعرف ويحيط بما يختبره، ويعرف أفكاره لكنه ليس أفكاره. يعرف مشاعره لكنه ليس مشاعره... أنا من ينتمي إلى كل شيء... أنا من ينتمي إلى المطلق...

الآن أعتقد أن رحلتي ستنتهي في رحاب إفريقيا؛ لأن روحي قد استلمت نداء من مكان آخر يجب أن ألبيه، لكن حدسي يهمس لي أن المكان الجديد ليس إلا محطة لن أحط الرحال بها مطولا، سأستلم شيئا وأتابع إلى ما يدعم وجودي ويرضي روحي.

الوجهة الجديدة هي آسيا. تحديدا الشرق الأوسط. تحديدا التربة التي تحمل مسك ملاكي.

الوجهة إلى لبنان...

الفصل العاشر

«نصف طريق لن يوصلك إلى أي مكان ونصف فكرة لن تعطي لك النتيجة»

جبران خليل جبران

ملاك

منذ أن تلقيت جواب المنظمة في أحرف تلك الرسالة التي تدلي بالموافقة على طلبي، وأنا أحمل قلبي بين يديّ عن كيفية إقناع والدتي بما سأقدم عليه، وبأنني قد فرضت جناحيّ وأنا مستعدة للتحليق في سماء المغامرة. فكرت في جميع السيناريوهات وصغت الجمل بكل الكلمات فقط كي أتمكن من إخبارها بشيء سأقدم عليه دون علمها مسبقا أو مشورتها لأول مرة في حياتي... بعد كل اللف والدوران اكتفيت بقول: أمي، لقد انضممت إلى منظمة أطباء بلا حدود وأعتقد بأنني سأحلق بعيدا عنك وعن طفلي. لم أضف أيًّا من الجمل التي تدربت عليها حتى ألقيها على مسامع أمي، حينها هربت كل الكلمات وشعرت بشلل في جسدي. فكنت أنا من فوجئ وليست هي، بعد رؤيتي لدموعها وهي تنهمر كالنهر. في بادئ الأمر اعتقدت أنها قد استاءت مني؛ لأنني قررت الابتعاد. لكن السبب الرئيسي كان المكان الذي ستبدأ فيه رحلتي مع المنظمة. لقد فتحت لها جراحا قديمة... مخيم شاتيلا بلبنان...

والآن أنا أحمل قلبي بين يديّ وأنا على متن الطائرة من فرط الحماس، وبعض من التوتر الذي نتج بسبب وسوسة نفسي القديمة البائسة، التي انتهزت الموقف حتى تظهر وتخضعني تحت رحمتها بسجني في عالمها المنهار. بدأت ترسل لي بأفكار من عالم الظلام تقلل من شأني وتشوش داخل رأسي حتى تلهيني عن الهدف الحقيقي مما أفعله، وتجرني إلى الوراء. أفكار من قبيل:

ربما لست أهلا لهذا !

ربما سأفشل في أداء مهمتي!

كيف سأتعامل مع الآخرين؟

كيف سينظر لي الناس؟

هل سأنهار تحت وطأة أحكام من أشخاص جاؤوا من كل بقاع الأرض؟

كل هذا لأنني فيما سبق كنت أعاني الكثير فيما يخص ثقتي بنفسي الضئيلة التي كانت تئن تحت الخوف من آراء وأحكام الناس عني. وهذا ما دفعني إلى اختيار الإذاعة بدل التلفاز؛ لأنه في اعتقادي أنني كنت محمية تماما خلف صوتي... أما عن الوقوف أمام طلابي في الدورات الخاصة لتعليم اللغة العربية فقد كان أهم إنجازاتي، وما دعم ثقتي به هو أنني كنت ألقن شيئا أجيده ببراعة لأشخاص لا يفقهون فيه شيئا. هنا كان الإيقو خاصتي ينتفخ ويعطيني وهم الثقة بالمقارنة، وكنت كلما ابتعدت عن الميكروفون بالإذاعة أو إذا خرجت من صفوف تلقين العربية، أجد أني أفقد مصداقيتي في الحديث والتعبير عن شخصي. أجد صعوبة حتى في الكلام براحة خاصة وسط تجمع كبير...

في الطائرة بعد توديع والدتي وصغيري بأحضان ملأت بطاريتي، أجلس بمحاذاة النافذة الصغيرة، أتحسس الطائرة وهي ترتفع عن الأرض، بينما يصلي أحدهم على أن تتم الرحلة بسلام، وتبكي إحداهن لأنها قد فارقت عزيزا لها. وتسارع أنفاس أحدهم وهو يعد انقضاء الثواني، الدقائق

والساعات الثماني الطويلة التي تفصله عن عزيزله ينتظره في الجهة الأخرى من العالم. أما أنا ما كنت من بين أحد من هؤلاء، وما كنت ممن خلد إلى النوم بسهولة فور إقلاع الطائرة. لم أتمكن من فتح الكتاب الذي اخترته حتى يكون مؤنسي، فاخترت أن أبحر في ذكرياتي...

كيف لقصة أن تقنعني بدخول قاعة يتجاوز حضورها المائة شخص يحتفلون بذكرى تشييد المستشفى؟ كانوا أشخاصا عاديين يمارسون الطبع الاجتماعي من إلقاء تحية وتبادل عبارات التعارف والتعريف بمجال العمل ومدح الطبيب الذي حضروا برفقته. أما أنا ما رأيتهم كذلك البتة! رأيت وجوها صارمة تتزين بقناع ذي ابتسامة مصطنعة، وكل ما تخيلته كان انهيالهم علي بالأسئلة أو طلب تفسيرلشيء ما. بدأ الجفاف يجتاح حلقي مع سريان برودة أسفل ظهري، وصداع شديد جعلني لا أبصر بوضوح، وتسلل يد خفية خشنة وباردة ألقت قبضتها على كل من قلبي تعتصره وحلقي تسده. فهممت حينها بالخروج وعدلت عن رأيي في حضور الحفل... بوجه تملؤه تعابير السماحة والثقة أمسك يدي وهمس لي بصوته الذي بدد شيئا من الخوف الذي تملكني:

- هدئي من روعك يا ملاك. ما كان إلحاحي لحضور الحفل إلا من أجلك، أريدك أن تواجهي رهابك الاجتماعي. فأنا على علم مسبق بأن تجمعا كهذا يربكك بشدة، لا يخفى عني أصغر تفصيل عنك فلا تحاولي أن تخدعيني بأن ما بك هو مجرد توعك هين سيزول بعد عودتك إلى المنزل ونيل قسط

من الراحة. أنت تعانين شيئا يجدربك مواجهته...

ومن سخرية الحياة، يعلمني المواجهة وقد هرب دون سابق إنذار! لكنني فعلا تمكنت من اجتياز توتر تلك الليلة بعدما حاك لي قصة تشربتها. ساعدتني نوعا ما وأعتقد بأن تذكر جوهرها سيساعدني في قتل أفكاري المتطفلة التي تريد إفساد طعم مغامرتي...

«كانت القصة تدور عن قرية صغيرة لم يعرف أهلها التمدن بعد... وكانوا يسمعون الأعاجيب عن المدينة وعاداتها المختلفة. كانوا يريدون معرفة حقيقة ما يسمعون عنه طوال الوقت... وفي أحد الأيام سافر منهم رجلان إلى المدينة، غابا فترة ثم عاد واحد منهما.

التفوا حوله وسألوه:

كيف وجدت المدينة؟

كيف هم أهلها؟

ما حقيقة ما كنا نسمعه؟

أجابهم الرجل بثقة:

لقد ذهبت بنفسي وعرفت الحقيقة. الحقيقة هي أن المدينة مرتع للفساد وكل أهلها سكيرون ولا يدينون بشيء، لقد كرهت المدينة.

عرف أهل القرية الإجابة التي انتظروها طويلا، فانفضوا من حوله وعاد كل منهم لعمله.

بعد أيام عاد الرجل الثاني. لم يهتموا بسؤاله عن رأيه في المدينة. لكنهم التفوا من حوله حينما وجدوا بأن له رأيا آخر لم يتوقعوه بعد ما قصه الرجل الأول.

أخبرهم:

لقد ذهبت بنفسي إلى المدينة وعرفت الحقيقة، وهي أن المدينة مليئة بدور العبادة وكل أهلها طيبون. لقد أحببت المدينة.

أصيب الناس بالارتباك. هل المدينة سيئة أم جيدة؟ وهل أهلها طيبون أم أشرار؟

لم يتمكن أحد من الإجابة على هته الأسئلة إلا حكيم القرية، فذهبوا إليه وسألوه:

أحدهم قال إن المدينة فاسدة مليئة بالأشرار، والآخر قال بأنها فاضلة مليئة بالأطهار. أي منهم نصدق؟

أجاب الحكيم:

كلاهما صادق!

وحين رأى الحيرة تطغى تعابير وجوههم، استطرد :

الأول لا أخلاق له، لذا ذهب إلى أقرب حانة بعد وصوله المدينة. فوجد ما قصه لكم.

بينما الثاني صالح، لذا قصد دار العبادة فور وصوله المدينة ووجد ما قصه لكم.

أضاف الحكيم :

من يرى الشر فهو لا يرى إلا ما فيه داخل نفسه، ومن يرى الخير فهو بالمثل يرى ما بداخل نفسه. وهكذا يمكنكم أن تقيسوا كل شيء، فالخارج مجرد انعكاس لدواخلنا وكذلك الآخرون هم مرآة لنا، نرى فيها انعكاس أنفسنا. فمن المستحيل أن يجتمع كل الناس على تقبل شخص ما أيا كان؛ لأنهم لا يرون إلا ما في داخل أنفسهم هم.»

عجيب هو أمر آدم، كان حكيما يرفض حكمته لنفسه لكنه لا يبخل بها تكرما على الآخرين. أين يمكن أن يكون الآن؟ وهل انتهى من الصراع مع نفسه؟

لم أتصفح ولا ورقة من الكتاب الذي أحضرته رفيقا للرحلة؛ لأن الوقت مرعلي بنعل لا صوت له، فلم أنتبه له وأنا أتفقد مجلد ذكرياتي. أنط من صفحة إلى صفحة حتى حطت طائرتي رحالها. وما كان لي إلا تدوين

شيء من الخواطر ككل مرة يزورني فيها إلهام من نسيم الكتابة: «الأماكن كالأشخاص تماما فكل له طبيعته وشخصيته، حطت الطائرة وما إن لامست قدمي أرض لبنان وانتفخ صدري بأول حفنة هواء منها، وقف كل شعر جسدي وسرت بي قشعريرة باردة امتزجت مع شعور بالبهجة التي أعتقد أنها بهجة والدي وهي تراني ألمس تراب موطنه مختلطا بشيء من الحزن الذي أعتقد أنه حزن أمي الذي أعادته لها ذكرياتها من الجحيم الذي عاشته هنا.»

اتجهنا نحو مقر مخيم شاتيلا، وحين قاربنا الوصول بدأ قلبي يتثاقل من الألم الذي ولدته المظاهر التي تعرف بالمخيم. مخيم يعيش به آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين حرموا من أبسط متطلبات الحياة. بقلب مكسور وعين تسبح في دموع لم أتمكن من إخفائها، توغلت بالمخيم لأكتشف ما جعل كياني يتشقق إثر زلزال عنيف ولدته الحقيقة البائسة للمخيم... مشاكل صحية لا نهاية لها، خاصة الأطفال الذين يعانون مشاكل في السمع والنظر، وفيات متكررة بنفس السيناريو بسبب الالتهابات الحادة في الكبد، الكلى والرئة. الرطوبة وغياب الضوء وعرقلة سريان التيارات الهوائية بسبب ارتفاع المباني وتراصها بشكل عشوائي مع اكتظاظ وضيق الممرات.. اختلاط مياه المجاري بمياه الشرب.. انتشار الفوضى مع بنى تحتية رثة.. التلوث بالنفايات... تابعت جولتي بالمخيم وأنا أرتل قول نيلسون منديلا: الفقر مشكلة من صنع الإنسان ونستطيع حلها وهو واجب علينا.

لكن رغم الدماروهشاشة الحياة بالمخيم، الحب لا يغفل عن نثربذوره حتى تزهرلتغطي بعبقها رائحة الجوع والموت. خطفت نظري صبية بدا أنها تستطعم الحب لأول مرة. ورغم عدم تناسق ما كانت تلبسه من قطع أنا متأكدة أنها جمعتها من ملبس شقيقاتها وصديقاتها، اللائي يراقبنها خفية بعد أن سترنها وهي تزين عينيها الواسعتين بكحل سرقته من أمها لتبدو كأميرة عزلت عن قصرها في قرية لا تشبهها ولا يشبه جمالها الأنقاض التي تسللت بينها، حتى تقابل ذاك الشاب الذي لا يبدو أن فتاته هي آخرهمه، لكنه يحبها بصدق. رأيت هذا في عينيه بينما احتضنت يداه الخشنتان يدها الرقيقة الناعمة، كما أنني رأيت جناحين للشاب يداعبان الهواء ببطء، وما إن ستشتد حركتهما سيحلق بهما يوما ما. لينكسرقلب الصغيرة فتتناثرقطعه بين الأنقاض في كل مكان، لكنها ما إن تلملم كل قطعه من جديد ستكون امرأة قوية تسعى إلى إنقاذ نفسها وإنقاذ عائلتها من الورطة التي أوجدتهم بها الحياة. وستتذكردوما حبيبها الذي ما كان بيده حيلة فانكسرت بعد رحيله لكنها مدينة له؛ لأنه جعلها ترى بأعين الحب جمالا لا يوجد في الجحيم الذي تعيش به...

تهدت مطولا ودعوت الله أن تكون نهايتهما غيرما رأيته أنا، لكنني لست الوحيدة التي شهدت ما شهدته. فالفتاة على إحدى الأسطح، ابتسمت لي بعد أن وقع نظري عليها وأنا أوجه دعائي نحو السماء. لقد رأت ما رأيت أيضا. هي لم تتحدث بشيء؛ لأن الصمت يملأ شفتيها منذ زمن وكل ما

فعلته هو إحضار كمانها الذي تحدث نيابة عنها. بدأت في عزف ألحان تصف كل مأساة العاشقين اللذين لن يهنآ بحبهما، ألحان ثقيلة تحاكي الحزن الذي يختبئ خلف أعين كل من يقطن بالمخيم...

انتهى اليوم الأول بشكل غريب. تقمصت فيه مشاعر هجينة عني وما كان للنوم أن يلقي مرساه بعينيّ وهي لا تتوقف عن التحديق في طيف كل العيون التي مرت بها لهذا اليوم. أرسلت الشمس أول أشعتها ولم أرتشف شيئا من النوم، تجهزت على مهل من أجل بداية عملي لأول مرة في ظروف أجهلها وأجهل ما المصير بعدها. التقينا بمجموعة من شباب المخيم، أرشدونا إلى مكان جهزوه بمعونة من أفراد منظمتنا حتى تحول إلى ما يشبه المدرسة. لم ألقِ بالا إلى تسارع الأحداث من حولي حتى وجدت أني بين أطفال كالبراعم التي طال موسم الجليد عليها، فما كان لها غير انتظار انقشاعه بأشعة من شمس الفرج، علها تتفتح لتكمل نموها وتفرعها نحو السماء.

بالكاد أخفيت دموعي ومنعتها عن النحيب لحالهم، لكن الحشرجة بصوتي فضحتني فلم يكن لي غير التوقف عن رسم الأحرف على الصبورة المتداعية والجلوس بانكسار على مقعدي. اخترت أن أمتزج بهم، فطلبت منهم أن يقصوا لي عن أحلامهم مستقبلا. فكان منهم من يحلم ببيت ذي سقف متين ينام تحته بمأمن مع بطن ممتلئ لا توقظه بصرخات جوعها منتصف الليل. كما كان من يحلم فقط بالجهاد والثأر لما يعيشه أهله.

وكان هناك أيضا من له أحلام في أن يحدث التغيير المرجو بالتعلم وإيصال رسالته إلى العالم، كما هو الحال مع الفتى الذي أخبرني بأنه يعلم ما يريد أن يصبحه.. هو يريد أن يكون طبيبا يساعد الآخرين كالطبيب الأجنبي الذي وعده بمساعدته بعد أن كان سببا في نجاة والدته. شعرت بفضول نحو ما يخبرني به الصغير فوجدت نفسي أسأله عن تفاصيل الحادثة مع والدته، كما وجدت أني أسأله عن الطبيب كأنني أسال عن شخص أعرفه بالفعل، ولا أعلم ما جعلني أشعر بالألفة مع مواصفات ذاك الطبيب.. أنهى الفتى حديثه بدعوتي إلى حفلة متواضعة ستقيمها والدته بمناسبة عيد ميلاد أخته الصغيرة، التي أصرت أن يقام لها حفل كيفما كان، وبهذا يمكنني مقابلة الطبيب فهو مدعو أيضا على قول الفتى.

آدم

ليس قسوة مني أو موتا لقلبي، أو تعودا من عيوني رؤية المعاناة التي احتلت وتقمصت حياة الملايين من البشر في بقاع الأرض. فمهما تحدثت عما كنت شاهدا عليه بالقارة الإفريقية لن يكون وصفي كافيا لنقل شناعة الصورة إلى من لم يختبر شيئا مما يعيشونه...

اليوم وأنا في قارة جديدة بمخيم مرّ على تواجدي به قرابة الشهر. لم أفاجأ بالوضع المزري هنا، ولا يهتز قلبي بشدة عندما تحدثني عيونهم بدل شفاههم؛ لأنه ليس لكل الكلام أحرف تطيق الشفاه التلفظ بها. ما عدت ألعن العالم الصامت بينما لا يتوقف صراخهم؛ لأنني أصبحت أعلم أن لكل إنسان طريقا عليه أن يمر به مهما كانت شناعته، وفي معاناة وألم كل شخص هناك تحديدا يكمن السر الذي جاءت من أجله روحه هته الأرض. كما أنني أصبحت مدركا لما هي الحياة.. إنها مسرحية في إطار الزمان والمكان، تحاول حصر كياننا ألا محدود وتجزئنا إلى شظايا بعدة أوجه، لا تعلم أنها في الحقيقة تعيش لنفسها وما تصارع إلا نفسها. كل ما أفعله الآن هو المراقبة بهدوء وأداء دوري في المكان الذي تقودني إليه روحي من أجل تلبية نداء من أرواح تحتاجني وأحتاجها، فكلنا هنا لبعضنا البعض. لا أحكم على قصة أحدهم ولا أتحسر على حاله؛ لأنه في النهاية سيكون راضيا حينما تلمسه أيادي الإدراك، سيهدأ غضبه ويشفى غليله ويروى

عطشه، ولن يبقى له سوى درب الحب يسلم له وتصبح مشيئته من مشيئة الله، ويصبح طفلا تملؤه الفطرة، يعيش فقط لحظته وتفرحه أبسط الأشياء تماما كالطفل الذي تحولت إليه أنا.

وما أبهجني اليوم هو دعوة لحضور حفل عيد ميلاد أخت صغير أحبته روحي كثيرا منذ أول مرة رأيته فيها وهو يصرخ بقوة الأعاصير من أجل نجدة والدته، التي كادت أن تفارق الحياة في آخر محاولة لها لمجابهة الورم الذي احتل رأسها، يهدد حياتها في كل لحظة كما يفعل كل مستعمر بسكان مستوطنته. كانت من القلة المحظوظة في بقعة هجرها الحظ؛ لأنها نجت بعد تدخل فريقنا الطبي للمنظمة المخصص بالجراحة، تمت عمليتها بنجاح رغم الظروف التي فتح بها رأسها، إنها يد الله الشافية التي سبقت أيادي الجراحين فكانت معجزتها أنها رزقت بحياة جديدة. وفي أثناء العناية المركزة للأم، رأيت أنه بوسعي أن أعتني بالطفل وأخته حتى تستعيد والدتهما عافيتها...

بعد الوقت الذي قضيته رفقتهما أعتقد أنه بوسعي أن أكون أبا صالحا. قصصت عليهما الكثير من الحكايات الرمزية حول الأبطال، وأقنعتهما أن بوسع أي كان أن يكون بطلا، ربما لم تهتم الفتاة ذات الأربع سنوات لقولي، لكن الفتى كان يصغي إلي بكله؛ لأنه يريد أن يصبح بطلا يحدث تغييرا كبيرا. رأيت الشعلة الملتهبة في عينيه ومدا إصراره فوعدته بأنني سأساعده. سأفعل كل ما بوسعي حتى لا ينطفئ اللهب الذي يغذيه، واعتقدت فعلا

أنني أتيت إلى هنا من أجله بعد أن سمعت روحي نداءه . اعتقدت هذا إلى أن جاء موعد حفل أخته ليخبرني أنني لست هنا من أجله فقط. بل هناك من استجابت روحي إلى ندائه أخيرا.

دخلت المنزل المتواضع الذي زينت شقوق جدرانه بإطارات ذات صنع يدوي تحمل صورا للقدس، وأخرى بها صورة شخص تلتهب عيناه شجاعة ويغطي رأسه بعمامة هي فخر لانتمائه. إنها صورة للوالد الذي استشهد في إحدى المعارك. بعد أن استقبلني الصغير ووالدته دخلت الحجرة التي ملأها الأولاد الصغار الذين أحاطوا بطاولة ترأستها صاحبة عيد الميلاد بإتمامها عامها الخامس. بلهفة منها وبهجة منتصر راحت تقطع الكيكة البسيطة التي حضرتها والدتها بكثير من الحب والإتقان. فجأة تدخل صوت هادئ لكنني تمكنت من سماع صداه من بين فرقعة ضحكات الأولاد الصاخبة، أوقفها: «تمهلي يجب أن نغني لكِ أولا ثم تطفئين شموعك مع أمنية، بعدها يمكنك أن تقطعي كعكتك.»

اهتزت الأرض من تحتي بعد أن ارتعش كل جسدي. الصوت مألوف لدي، بل أنا أعرف صاحبه حق المعرفة. كل ما شغل ذهني كيف وصلت إلى هنا؟ بحثت عيناي بشوق بين الأطفال لألمحها دون أن تراني هي. دنوت ببطء وكل خطوة كانت تزيد من تسارع نبضي إلى أن وقفت أمامها مباشرة، فتركت يداها هندام الطفلة الذي أخذت تعدله لتسقط بهدوء داخل حجرها. أطالت النظر في الأرض، وبصعوبة رفعت رأسها لتنظر إلي...

تمنيت لو أنها ثارت غضبا بي، وربما تصفعني وتنهال علي بالضرب مع العتاب واللوم لما فعلته بها، أو ربما ترتمي بأحضاني وتعانقني بشدة تكسر أضلعي، تخبرني بأنها اشتاقت إلي وأنها لم تفقد الأمل في لقائنا مجددا... لكنها لم تفعل أي شيء من هذا القبيل، التزمت الهدوء والصمت. فبقي الكلام لأعيننا فقط، أخبرتها بأنني آسف وأخبرتني بأنها لم تعد تحمل الضغينة والغضب اتجاهي. أخبرتها بأنني لا زلت أحبها، وأخبرتني هي بدورها أنها لم تتوقف عن حبي قط. تبادلت أعيننا الكثير من الأحاديث في حرم الصمت الذي شل شفاهنا...

عيناها بريئتان كعادتهما، لكنهما أصبحتا تتسمان بالشجاعة والقوة، كما أنهما أصبحتا موسومتين بعمق، وبهما وضوح عما تريدان وحماس لاكتشاف شيء ما. أعتقد أنها قد استلمت نداء روحها وها قد بدأت طريقها.

كانت أشجع مني، فأوقفت حديث الأعين المرهق وكسرت حاجز الصمت بقولها الذي حل علي كالصاعقة: «أ ترى الفتاة التي تحتفل بذكرى ميلادها الخامس، إنه بمثل سنها تقريبا وهو على أبواب إتمام الخامسة أيضا. أنت لست مدينا لي الآن بأي شيء؛ لأنني الآن أعلم إجاباتك مسبقا، ولا أنتظر منك أن تتأسف لي، لأنني كنت جزءا من قصتك بإرادتي وكان علي تحمل كل النتائج. ففي النهاية مهما كانت التجربة مريرة إلا أنها فتحت لي آفاقا جديدة من الحياة، وجعلتني أتعامل مع ضعفي وأعالج أشد مخاوفي. لكنك

مدين له بأن تكون معه. أنا لا أحتاج إلى سماع قصصك خلال السنوات التي تلت رحيلك، لكنه بحاجة إلى سماعها. فربما ستختصر عليه اجتياز طريق الألم الذي كان يتوجب على كلينا المرور من خلاله.»

ملاك

لن تحل العقد بسهولة بين شخصين قد غاص كل منهما في محيط الآخر، لذا كنت متيقنة من أننا سنحظى بلقاء آخر. فلم أترك فيما سبق سيناريو عن كيفية حدوث الأمر إلا وتخيلته، لكن لم يخطر ببالي قط أن يجمعنا مكان مستبعد كهذا. يا لغرابة المفاجآت التي تحاك بدهاء الحياة في الوقت الذي لا يتوقع فيه المرء نهاية درب قد اختار المشي فيه فقط لأن روحه قد ألحت عليه، ودفعت به إلى الانطلاق دون تحضير لمتاع قد يحتاجه، مطمئنة له بهمسها فقط: «اعتبرها رحلة تخييم فجائية بعد انعطاف إلى طريق مجهول ربما يكون هو الخلاص، وربما يكون بداية لتفرعات أخرى من السبل، يوجه كل منها إلى الآخر من خلال الإشارات الموسومة بقلب كل منها، والتي لن يضيع عنها من أغمض عينيه وأحسن قراءتها بعين الروح التي تصيب حتى وإن بدا لنا أننا نهذي بالمخاطرة في شيء ليس لمعالمه أي وضوح.»

همست لي روحي صبيحة هذا اليوم أنني سأتلقى إجابات قد بحثت عنها. تعجبت كيف لحفلة عيد ميلاد أن تحمل الإجابات التي عذبني جهلي لها، لكنها لم تفعل هي بل فعلت عيناه التي أخبرتني بكل شيء حتى أنني لم أسأل عن شيء!

قبل هذا انشغلت كل الصبيحة في البحث عن هدية تناسب الصغيرة، فلم أجد غير البراسليه الفضية بشعار السلام التي كانت تختبئ في حقيبتي... وسط هرج وبهجة الصغار في أحضان البيت المتواضع تمنيت لو كان طفلي يمرح وسط هذا الفضاء النقي، لكنه بأيادي أمينة وليس له أن يتورط معي في سبيل ليس واضحا ولن يتسم بالاستقرار. رحت أفكر في خطيئتي فكيف لقلبي الرهيف أن ينكر صغيري؟ وبشيء من التناقض أقنع نفسي بأنه ليس خطئي، لكن كان من المفترض أن يحدث ما حدث بطريقة أو بأخرى. وما إن تبددت أفكاري وعدت إلى اللحظة بين جميع الحضور، لكنني لم ألبث بها مطولا؛ لأنني قفزت إلى اللازمان ولا مكان، ارتعشت يداي قبل أن تبصر عيناي من كان يرقبني لبرهة من الزمن، ثم توقف كل شيء ولم يعد هناك وجود غير وجودنا...

نحدق بأعيننا وقبل أن يختفي وجود أجسادنا هي الأخرى، لمحت أنه قد اكتسب سمرة جعلته يبدو أستراليا لا أوربيا، وقبل أن يلتحم وجودنا ويتحول إلى مناجاة، رأيت في عينه فسحة من الوضوح قد بددت الغموض والحيرة التي عهدتهما بهما... تناجت روحانا بالكثير الذي ليس للكلام أن ينقله، وليس للأحضان أن تحيط به، وليس للقبل أن تعبر عنه، فلم يكن هناك داعٍ لأن أسأله عما انتظرت سنوات حتى أعلم إجابته. لا بل تحصلت على إجابات تخصني أنا، وتخص كل من يرغب في البحث عن جوهره. هو يعلم الإجابة بوضوح لكنه لم يحسن نقلها إلي حتى من خلال المناجاة التي بوسعها أن تشرح ما يعجز عنه الكلام. لم يتمكن من هذا؛ لأن البحث

عن الجوهر تجربة فردية يعيشها كل باحث على حدة... إذا هو وجد الإجابة عما كان يبحث عنه، أما أنا فلن يهدأ لي بال حتى أجدني، وأعتقد أن هذا السبيل الذي اختارته روحي تملأه الإشارات التي ستوجهني، لذا لن آكل هم أي شيء غير التسليم...

أما عنا نحن الاثنان فلن ننتهي في نفس الطريق، وليس لكل حبيبين نفس الاتجاه رغم أن اتجاه الحب واحد. فلا ضير في أن نحب بلا شروط وتوقعات. وما كان ليكون حبا لو تخللته شوائب من البغضاء. وما كان ليكون حبا لو لم يصل المتحابان كل بروحه بعد أن وصل كل من قلبيهما... سأكتشف بنفسي ما اكتشفه من لم يسعهم الحديث عنه!